

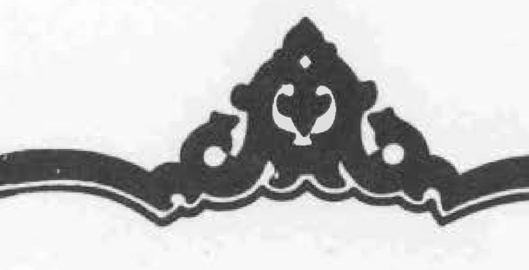
تذكرة النفس والإخوان

بما ينبغي التنبه له في كل زمان

بقلم جامعه
الفقير إلى المنان
عبد الرحمن بن عبد العزيز بن محمد بن سحمان
غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

الطبعة الثانية
١٤٠٩هـ





تذكرة النفس والإخوان

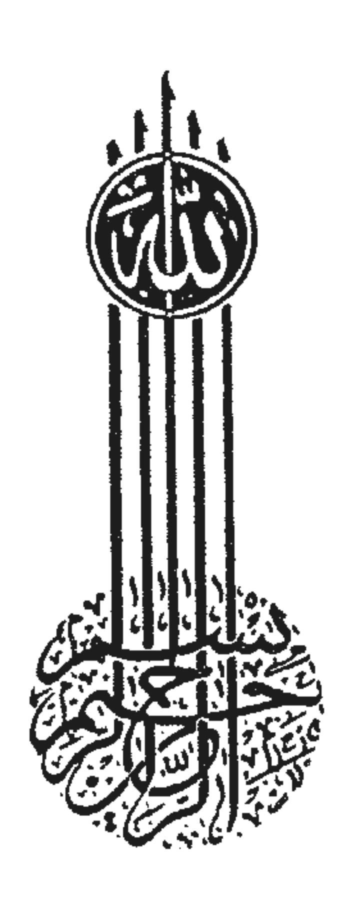
بما ينبغي التنبه له في كل زمان

بقلم جامعه
الفقير إلى المنان
عبد الرحمن بن عبد العزيز بن محمد بن سحمان
غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

الطبعة الثانية
١٤٠٩هـ










شبكة
الألوكة
www.alukah.net


الجديد
و
الطريف
NEW & EXCLUSIVE

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلىٰ الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد فهذه مسائل مفيدة، وفوائد وقواعد جليلة، جمعتها تذكرة لنفسي ولمن أحب ذلك من إخوتي، من كتب شمس الدين، وعلم الهداة المهتدين، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي المعروف بابن قيم الجوزية رفع الله منزلته في الجنة العلية، ماعدا أشياء قليلة أثبتها من كتب أخرى لمناسبتها لما أردته وقصدته.

وسميت هذا المجموع (تذكرة النفس والإخوان بما ينبغي التنبه له في كل زمان).

واعلم أيها الناظر إليه بأن ليس لي فيه إلا الاختيار والاختصار، والتنبيه على المقصود بالعنوان وقد أوضحت عند نهاية كل بحث في الحاشية اسم الكتاب أو اسم مؤلفه المنقول عنه.

وأسأل الله أن يجعل عملي خالصًا لوجهه الكريم وأن ينفعني ومن سمعه ونظره بما حررته فيه إنه ولي ذلك والقادر عليه.

جامع الكتاب

عبدالرحمن بن عبدالعزيز بن محمد بن سحمان

عفا الله عنه بمنه وكرمه

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين نبينا محمد وعلى آله وأصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين أما بعد . .

فحيث كثر من طلبة العلم سؤالي عن كتابي المسمى بتذكرة النفس والإخوان بما ينبغي التنبه له في كل زمان، وقد نفذت طبعته الأولى، وطلب مني الكثير من طلبة العلم إعادة طبعه وبما أن الطبعة الأولى كثر فيها الغلط حيث طبع خارج المملكة ولم أتمكن من تصحيحه فقد استعنت الله وقمت بتصحيح ما حصل فيه من الأغلاط المطبعية وإعادة طبعه في مطابع المملكة العربية السعودية بمدينة الرياض بمطبعة الفرزدق لما اشتهرت به من حسن الطباعة والتجليد، وأرجو أن يتم ذلك على أحسن ما أؤمله وأسأل الله تعالى أن ينفعني به ومن قرأه أو سمعه إنه ولي ذلك والقادر عليه ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

حرر في ١/ ٧/ ١٤٠٩هـ

بقلم مؤلف الكتاب

عبد الرحمن بن عبد العزيز بن محمد بن سحمان



فضل التذكير بالله تعالى ومجالس الذكر

قال الله تعالى: ﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾.

وقال الله عز وجل: ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانًا وعلى ربهم يتوكلون﴾.

وقال تعالى: ﴿وبشر المخبتين الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾.

وقال تعالى: ﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله ومانزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون﴾.

وقال تعالى: ﴿الله نزل أحسن الحديث كتابًا متشابهًا مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾.

وقال العرباض بن سارية رضي الله عنه: «وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون».

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «نعم المجلس المجلس الذي تنشر فيه الحكمة وترجى فيه الرحمة هو مجلس الذكر».

وشكا رجل إلى الحسن قساوة قلبه فقال: أدنه من الذكر.

وقال: مجلس الذكر محياة العلم ويحدث في القلب الخشوع. القلوب الميتة تحيا بالذكر كما تحيا الأرض الميتة بالقطر.



بذكر الله ترتاح القلوب   ودنيانا بذكراه تطيب

وفي مجالس الذكر تنزل الرحمة وتغشى السكينة وتحف الملائكة؛ ويذكر الله أهلها فيمن عنده، وهم القوم لايشقى بهم جليسهم. فربما رحم معهم من جلس إليهم وإن كان مذنبًا، وربما بكى فيهم باك من خشية الله فوهب أهل المجلس كلهم له، وهي رياض الجنة قال النبي ﷺ: «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا قالوا: وما رياض الجنة يارسول الله؟ قال: مجالس الذكر».

فإذا انقضى مجلس الذكر، فأهله بعد ذلك على أقسام:

فمنهم: من يرجع إلى هواه فلا يتعلق بشيء مما سمعه في مجلس الذكر ولايزداد هدى ولا يرتدع عن ردى. وهؤلاء شر الأقسام ويكون ماسمعوه حجة عليهم فتزداد به عقوبتهم، وهؤلاء الظالمون لأنفسهم **﴿أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون﴾**.

ومنهم من ينتفع بما سمعه. وهم على أقسام:

فمنهم: من يرده ماسمعه عن المحرمات ويوجب له التزام الواجبات وهؤلاء المقتصدون أصحاب اليمين.

ومنهم: من يرتقي عن ذلك إلى التشمير في نوافل الطاعات والتورع عن دقائق المكروهات، ويشتاق إلى اتباع آثار من سلف من السادات وهؤلاء السابقون المقربون.

وينقسم المنتفعون بسماع مجلس الذكر في استحضار ماسمعوه في المجلس والغفلة عنه إلى ثلاثة أقسام:

فقسم: يرجعون إلى مصالح دنياهم المباحة فيشتغلون بها فتذهل بذلك قلوبهم عما كانوا يجدونه في مجلس الذكر من استحضار عظمة الله وجلاله وكبريائه ووعده ووعيده وثوابه وعقابه، وهذا هو الذي شكاه الصحابة إلى النبي ﷺ وخشوا لكمال معرفتهم وشدة خوفهم أن يكون نفاقًا فأعلمهم النبي ﷺ أنه ليس بنفاق وفي صحيح مسلم عن حنظلة أنه قال: يارسول الله نافق حنظلة قال: «وما ذاك؟» قال: نكون عندك تذكرنا بالجنة والنار كأنها رأي عين فإذا رجعنا من عندك عافسنا[1] الأزواج والضيعة ونسينا كثيراً. فقال: «لو تدومون على الحال التي تقومون بها من عندي لصافحتكم الملائكة في مجالسكم وفي طرقكم ولكن ياحنظلة ساعة وساعة».

وفي رواية له أيضًا «لو كانت قلوبكم كما تكون عند الذكر لصافحتكم الملائكة حتى تسلم عليكم في الطرق».

ومعنى هذا أن استحضار ذكر الآخرة بالقلب في جميع الأحوال عزيز جداً ولايقدر كثير من الناس أو أكثرهم عليه فيكتفى منهم بذكر ذلك أحيانًا.

وإن وقعت الغفلة عنه في حال التلبس بمصالح الدنيا المباحة ولكن المؤمن لا يرضى من نفسه بذلك بل يلوم نفسه عليه ويحزنه ذلك من نفسه.

وقسم آخر: يستمرون على استحضار حال مجلس سماع الذكر فلا

---

(١) معنى عافسنا: عالجنا.

يزال تذكر ذلك بقلوبهم ملازمًا لهم، وهؤلاء على قسمين:

أحدهما: من يشغله ذلك عن مصالح دنياه المباحة فينقطع عن الخلق فلا يقوى على مخالطتهم ولا القيام بوفاء حقوقهم. وكان كثير من السلف على هذه الحال.

فمنهم: من كان لا يضحك أبدًا. **ومنهم**: من كان يقول لو فارق ذكر الموت قلبي ساعة لفسد.

والثاني: من يستحضر ذكر الله وعظمته وثوابه وعقابه بقلبه، ويدخل ببدنه في مصالح دنياه من اكتساب الحلال والقيام على العيال والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهؤلاء أشرف القسمين. وهم خلفاء الرسل، وهم الذين قال فيهم علي رضى الله عنه: صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالمحل الأعلى. وقد كان حال النبي ﷺ عند الذكر تتغير ثم يرجع بعد انقضائه إلى مخالطة الناس والقيام بحقوقهم.

ففي مسند البزار ومعجم الطبراني عن جابر رضى الله عنه قال: «كان النبي ﷺ إذا نزل عليه الوحي قلت نذير قوم فإذا سُرّى عنه فأكثر الناس ضحكًا وأحسنهم خلقًا».

وفي مسند الإمام أحمد عن علي أو الزبير قال: «كان رسول الله ﷺ يخطبنا فيذكرنا بأيام الله حتى نعرف ذلك في وجهه وكأنه نذير جيش يصبحهم الأمر غدوة وكان إذا كان حديث عهد بجبريل لم يتبسم ضاحكًا حتى يرتفع عنه»[1]

(١) من لطائف المعارف لابن رجب باختصار.





شرف العلم والعبادة

إعلم أن العلم والعبادة، جوهران لأجلهما كان كل ماترى وتسمع من تصنيف المصنفين، وتعليم المعلمين، ووعظ الواعظين، ونظر الناظرين، بل لأجلهما أنزلت الكتب وأرسلت الرسل، ولأجلهما خلقت السمٰوات والأرض وما فيهما.

فتأمل آيتين في كتاب الله تعالىٰ: إحداهما: قوله تعالى: ﴿**الله الذي خلق سبع سمٰوات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً**﴾ وكفى بهذه الآية دليلاً على شرف العلم، ولاسيما علم التوحيد. والثانية: قوله تعالى: ﴿**وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون**﴾ وكفى بهذه الآية دليلاً على شرف العبادة ولزوم الإقبال عليها.

فأعظم بأمرين هما المقصود من خلق الله تعالى، فحق للعبد أن لا يشتغل إلا بهما ولا ينظر إلا فيهما.

واعلم أن ماسواهما من الأمور لاخير فيه ولاحاصل فيه، فإذا علمت ذلك، فاعلم أن العلم أشرف الجوهرين وأفضلهما، ومع ذلك فلابد مع العلم من العمل به، وإلا كان هباء منثورًا، فإن العلم بمنزلة الشجرة، والعبادة بمنزلة الثمرة والشرف للشجرة إذ هي الأصل لكن الإنتفاع إنما يحصل بثمرها، فإذاً لابد لك من كل من الأمرين حظ ونصيب بل لابد لك من أربعة أشياء: العلم،



والعمل، والإخلاص، والخوف. فيعلم الطريق أولاً وإلا فهو أعمى، ثم يعمل بعلمه ثانياً وإلا فهو محجوب، ثم يخلص العمل ثالثاً وإلا فهو مغبون، ثم لايزال يخاف ويحذر من الآفات وإلا فهو مغرور. فإن الأعمال بخواتيمها وما يدري مايختم له[1].

عنوان سعادة العبد وبيان ما افترض الله عليه في طبقاته الثلاث الملازمة له في هذه الحياة

الله سبحانه وتعالى المسئول المرجو الإجابة أن يتولانا في الدنيا والآخرة، وأن يسبغ علينا نعمه الظاهرة والباطنة، وأن يجعلنا ممن إذا أنعم عليه شكر، وإذا ابتلي صبر، وإذا أذنب استغفر، فإن هذه الأمور الثلاثة عنوان سعادة العبد وعلامة فلاحه في دنياه وأخراه. ولاينفك عبد عنها أبدًا فإن العبد دائمًا يتقلب بين هذه الأطباق الثلاث.

نعم من الله تعالى تترادف عليه، فقيدها الشكر وهو مبني على ثلاثة أركان: الإعتراف بها باطناً، والتحدث بها ظاهرًا، وتصريفها في مرضاة وليها ومسديها ومعطيها. فإذا فعل ذلك فقد شكرها مع تقصيره في شكرها.

الثاني: محن من الله تعالى يبتليه بها ففرضه فيها الصبر والتسلي، والصبر: حبس النفس عن التسخط بالمقدور، وحبس اللسان عن الشكوى، وحبس الجوارح عن المعصية، كاللطم وشق الثياب ونتف

---

(١) من كلام الغزالي.





الشعر ونحوه. فمدار الصبر على هذه الأركان الثلاثة. فإذا قام به العبد كما ينبغي انقلبت المحنة في حقه منحة، واستحالت البلية عطية، وصار المكروه محبوبًا، فإن الله سبحانه وتعالى لم يبتله ليهلكه وإنما ابتلاه ليمتحن صبره وعبوديته، فإن لله تعالىٰ على العبد عبودية في الضراء كما له عليه عبودية في السراء، وله عبودية عليه فيما يكره كما له عليه عبودية فيما يحب، وأكثر الخلق يعطون العبودية فيما يحبون فقط. والشأن في إعطاء العبودية في المكاره ففيه تتفاوت مراتب العباد، وبحسبه كانت منازلهم عند الله تعالى. فالوضوء بالماء البارد في شدة الحر عبودية، ومباشرة زوجته الحسناء التي يحبها عبودية. ونفقته عليها وعلى عياله ونفسه عبودية. هذا والوضوء بالماء البارد في شدة البرد عبودية، وتركه المعصية التي اشتدت دواعي نفسه إليها من غير خوف من الناس عبودية، ونفقته في الضراء عبودية ولكن فرق عظيم بين العبوديتين.

فمن كان عبدًا لله في الحالتين قائمًا بحقه في المكروه والمحبوب فذلك الذي تناوله قوله تعالى: ﴿**أليس الله بكاف عبده**﴾ وفي القراءة الأخرى عباده وهما سواء؛ لأن المفرد مضاف فيعم عموم الجمع. فالكفاية التامة مع العبودية التامة. والناقصة مع الناقصة فمن وجد خيرًا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه. وهؤلاء هم عباده الذين ليس لعدوه عليهم سلطان قال تعالى: ﴿**إن عبادي ليس لك عليهم سلطان**﴾.

ولما علم عدو الله إبليس أن الله تعالى لايسلم عباده إليه، ولا



يسلطه عليهم قال: ﴿فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين﴾.

وقال تعالى: ﴿ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقًا من المؤمنين وماكان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك﴾ فلم يجعل لعدوه سلطانًا على عباده المؤمنين. فإنهم في حرزه وكلاءته وحفظه وتحت كنفه، وإن اغتال عدوه أحدهم كما يغتال اللص الرجل العاقل فهذا لابد منه فإن العبد قد بلي بالغفلة والشهوة والغضب ودخوله على العبد من هذه الأبواب الثلاثة. ولو احترز العبد ما احترز فلابد له من غفلة. ولابد له من شهوة. ولابد له من غضب.

وقد كان آدم أبو البشر ﷺ من أحلم الخلق وأرجحهم عقلاً واثبتهم ومع هذا فلم يزل به عدو الله حتى أوقعه فيما أوقعه فيه. فما الظن بفراشة الحلم[1] ومن عقله في جنب عقل أبيه كتفلة في بحر. ولكن عدو الله لايخلص إلى المؤمن إلا غيلة وعلى غرة وغفلة فيوقعه، ويظن أنه لايستقبل ربه عز وجل بعدها. وأن تلك الوقعة قد اجتاحته وأهلكته وفضل الله تعالى ورحمته وعفوه ومغفرته وراء ذلك كله.

فإذا أراد بعبده خيراً فتح له أبواب التوبة والندم والإنكسار والذل

---

(١) أي أن حلمه بالنسبة إلى آدم حمق فإن الفراشة أشد شيء حمقًا إذ ترمى نفسها في النار.



والإفتقار والإستعانة به وصدق اللجأ إليه ودوام التضرع والدعاء والتقرب إليه بما أمكن من الحسنات ماتكون تلك السيئة به سبب رحمته حتى يقول عدو الله: ياليتني تركته ولم أوقعه. وهذا معنى قول بعض السلف: إن العبد ليعمل الذنب يدخل به الجنة، ويعمل الحسنة يدخل بها النار. قالوا: كيف؟ قال: يعمل الذنب فلا يزال نصب عينيه خائفًا منه مشفقًا وجلاً باكيًا نادمًا مستحيًا من ربه تعالى ناكس الرأس بين يديه منكسر القلب له، فيكون ذلك ذنب أنفع له من طاعات كثيرة بما ترتب عليه من هذه الأمور التي بها سعادة العبد وفلاحه، حتى يكون ذلك الذنب سبب دخوله الجنة. ويفعل الحسنة فلايزال يمن بها على ربه ويتكبر بها ويرى نفسه شيئًا، ويعجب بها، ويستطيل بها ويقول فعلت وفعلت فيورثه من العجب والكبر والفخر والاستطالة ما يكون سبب هلاكه فإذا أراد الله تعالى بهذا المسكين خيراً ابتلاه بأمر يكسره به ويذل به عنقه، ويصغر به نفسه عنده، وإن أراد به غير ذلك خلاه وعجبه وكبره. وهذا هو الخذلان الموجب لهلاكه، فإن العارفين كلهم مجمعون على أن التوفيق: هو أن لا يكلك الله تعالى إلى نفسك، والخذلان: أن يكلك الله تعالى إلى نفسك[1].

---

(١) من الوابل الصيب.



عنوان إرادة الله بعبده الخير
وبيان القاعدتين اللتين عليهما مدار العبودية وهما أصلها

من أراد الله به خيراً فتح له باب الذل والإنكسار ودوام اللجأ إلى الله تعالى والإفتقار إليه. ورؤية عيوب نفسه، وجهلها وعدوانها، ومشاهدة فضل ربه وإحسانه ورحمته وجوده وبره وغناه وحمده.

فالعارف: سائر إلى الله تعالى بين هذين الجناحين [1] لايمكنه أن يسير إلا بهما. فمتى فاته واحد منهما فهو كالطير الذي فقد أحد جناحيه.

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: العارف يسير إلى الله بين مشاهدة المنة، ومطالعة عيب النفس والعمل، وهذا معنى قوله ﷺ في الحديث الصحيح من حديث بريدة رضى الله عنه: «سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ماصنعت، أبوء لك بنعمتك عليّ وأبوء بذنبي فاغفر لي إنه لايغفر الذنوب إلا أنت». فجمع في قوله ﷺ: أبوء لك بنعمتك عليّ وأبوء بذنبي: مشاهدة المنة، ومطالعة عيب النفس والعمل. فمشاهدة المنة توجب له المحبة والحمد والشكر لولي النعم والإحسان، ومطالعة عيب النفس والعمل توجب له الذل والإنكسار والإفتقار والتوبة في

(١) الأول: شهود عيوب النفس الخ والثاني: شهود فضل ربه الخ.



كل وقت، وأن لا يرى نفسه إلا مفلسًا، وأقرب باب يدخل منه العبد على الله تعالى هو باب الإفلاس. فلا يرى لنفسه حالاً ولا مقامًا ولا سببًا يتعلق به ولا وسيلة منه يمن بها، بل يدخل على الله من باب الإفتقار الصرف والإفلاس المحض، دخول من قد كسر الفقر والمسكنة قلبه حتى وصلت تلك الكسرة إلى سويدائه فانصدع. وشملته الكسرة من كل جهاته. وشهد ضرورته إلى ربه عز وجل وكمال فاقته وفقره إليه، وأن كل ذرة من ذراته الظاهرة والباطنة فاقة تامة وضرورة كاملة إلى ربه تبارك وتعالى، وأنه إن تخلى عنه طرفة عين هلك وخسر خسارة لا تجبر إلا أن يعود إلى الله تعالى ويتداركه برحمته. ولا طريق إلى الله تعالى أقرب من العبودية، ولا حجاب أغلظ من الدعوى.

والعبودية: مدارها على قاعدتين هما أصلها: حب كامل، وذل تام.

ومنشأ هذين الأصلين على ذينك الأصلين المتقدمين، وهما مشاهدة المنة التي تورث المحبة، ومطالعة عيب النفس والعمل التي تورث الذل التام.

وإذا كان العبد قد بنى سلوكه إلى الله تعالى على هذين الأصلين لم يظفر عدوه به إلا على غرة وغيلة، وما أسرع ماينعشه الله عز وجل ويجبره ويتداركه برحمته[1].

(١) من الوابل الصيب.

السبب الذي به يستقيم بناء السلوك إلى الله تعالى على هذين الأصلين وبيان استقامة القلب والجوارح

لايستقيم للعبد بناء سلوكه إلى الله تعالى على هذين الأصلين إلا باستقامة قلبه وجوارحه. فاستقامة القلب بشيئين:

إحداهما: أن تكون محبة الله تعالى تتقدم عنده على جميع المحاب، فإذا تعارض حب الله تعالى وحب غيره سبق حب الله تعالى حب ماسواه، فرتب على ذلك مقتضاه. وما أسهل هذا بالدعوى وما أصعبه بالفعل. وعند الإمتحان يكرم المرء أو يهان. وما أكثر مايقدم العبد مايحبه هو ويهواه، أو يحبه كبيره وأميره وشيخه وأهله على مايحبه الله تعالى. فهذا لم تتقدم محبة الله تعالى في قلبه جميع المحاب، ولا كانت هي الملكة المؤمرة عليها ـ وسنة الله تعالى فيمن هذا شأنه ـ أن ينكد عليه محابه وينغصها عليه ولاينال شيئًا منها إلا بنكد وتنغيص جزاء له على إيثار هواه وهوى من يعظمه من الخلق، أو يؤثر محبته على محبة الله وقد قضى الله تعالى قضاء لايرد ولايدفع. ان من أحب شيئًا سواه عذب به ولابد، وأن من خاف غيره سلطه عليه، وأن من اشتغل بشيء غيره كان شؤماً عليه ومن آثر غيره عليه لم يبارك فيه ومن ارضى غيره بسخطه أسخطه عليه ولابد.

الأمر الثاني الذي يستقيم به القلب: تعظيم الأمر والنهي، وهو ناشيء عن تعظيم الآمر الناهي. فإن الله تعالى ذم من لا يعظمه ولايعظم أمره ونهيه قال سبحانه وتعالى: **﴿مالكم لاترجون لله وقاراً﴾**

قالوا في تفسيرها: مالكم لاتخافون لله تعالى عظمة.

وما أحسن ماقال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى في تعظيم الأمر والنهي: هو أن لايعارضا بترخص جاف ولا يعارضا بتشديد غال ولا يحملا على علة توهن الإنقياد، ومعنى كلامه: أن أول مراتب تعظيم الحق عز وجل تعظيم أمره ونهيه. وذلك لأن المؤمن يعرف ربه عز وجل برسالته التي أرسل بها رسول الله ﷺ إلى كافة الناس، ومقتضاها الإنقياد لأمره ونهيه وإنما يكون ذلك بتعظيم أمر الله عز وجل واتباعه وتعظيم نهيه واجتنابه، فيكون تعظيم المؤمن لأمر الله تعالى ونهيه دالاً على تعظيمه لصاحب الأمر والنهي ويكون بحسب هذا التعظيم من الأبرار المشهود لهم بالإيمان والتصديق وصحة العقيدة والبراءة من النفاق الأكبر فإن الرجل قد يتعاطى فعل الأمر لنظر الخلق، وطلب المنزلة والجاه عندهم، ويتقي المناهي خشية سقوطه من أعينهم وخشية العقوبات الدنيوية من الحدود التي رتبها الشارع ﷺ على المناهي. فهذا ليس فعله وتركه صادراً عن تعظيم الأمر والنهي ولاتعظيم الآمر الناهي.

فعلامة التعظيم للأوامر: رعاية أوقاتها وحدودها، والتفتيش على أركانها وواجباتها وكمالها، والحرص على تحينها في أوقاتها، والمسارعة إليها عند وجوبها، والحزن والكآبة والأسف عند فوت حق من حقوقها، كمن يحزن على فوت الجماعة ويعلم أنها لو تقبلت منه صلاته منفردًا فإنه قد فاته سبعة وعشرون ضعفًا، ولو أن رجلًا يعاني البيع والشراء يفوته في صفقة واحدة في بلده من غير سفر ولا مشقة



سبعة وعشرون دينارًا لأكل يديه ندمًا وأسفًا، فكيف وكل ضعف مما تضاعف به صلاة الجماعة خير من ألف وألف ألف وما شاء الله تعالى، فإذا فوت العبد على نفسه هذا الربح - وكثير من العلماء يقول لاصلاة له - وهو بارد القلب فارغ من هذه المصيبة، غير مرتاع لها. فهذا من عدم تعظيم أمر الله تعالى في قلبه.

وكذلك إذا فاته أول الوقت الذي هو رضوان الله تعالى أو فاته الصف الأول الذي يصلي الله وملائكته على ميامنه ولو يعلم العبد فضيلته لجالد عليه ولكانت قرعة.

وكذلك لو فوت الجمع الكثير الذي تضاعف الصلاة بكثرته وقلته. وكلما كثر الجمع كان أحب إلى الله عز وجل وكلما بعدت الخطا كان كل خطوة تحط خطيئة وأخرى ترفع درجة.

وكذلك لو فوت الخشوع في الصلاة وحضور القلب فيها بين يدي الرب تبارك وتعالى الذي هو روح الصلاة ولبها. فصلاة بلا خشوع ولا حضور كبدن ميت لاروح فيه أفلا يستحي العبد أن يهدي إلى مخلوق مثله عبدًا ميتًا أو جارية ميتة فما ظن هذا العبد أن تقع تلك الهدية ممن قصده بها من ملك أو أمير أو غيره. فهكذا سواء الصلاة الخالية من الخشوع والحضور وجمع الهمة على الله تعالى فيها بمنزلة هذه الأمة أو العبد الميت الذي يريد إهداءه إلى بعض الملوك، ولهذا لايقبلها الله تعالى منه وإن أسقطت الفرض في أحكام الدنيا، ولا يثيبه عليها، فإنه ليس للعبد من صلاته إلا ماعقل منها كما في السنن ومسند الإمام أحمد وغيره عن النبي ﷺ أنه قال: «إن العبد ليصلي





الصلاة وماكتب له إلا نصفها إلا ثلثها إلا ربعها إلا خمسها حتى بلغ عشرها».

وينبغي أن يعلم أن سائر الأعمال تجري هذا المجرى فتفاضل الأعمال عند الله تعالى بتفاضل مافي القلوب من الإيمان والإخلاص والمحبةوتوابعها،وهذا العمل الكامل هو الذي يكفر السيئات تكفيراً كامـلاً والناقص بحسبه. وبهاتين القاعدتين تزول إشكالات كثيرة وهما تفاضل الأعمال بتفاضل مافي القلوب من حقائق الإيمان وتكفير العمل للسيئات بحسب كماله ونقصانه.

وأمـا علامـات تعظيم المناهي: فالحرص على التباعد من مظانها وأسبابها ومايدعو إليها، ومجانبة كل وسيلة تقرب منها، كمن يهرب من الأماكن التي فيها الصور التي تقع بها الفتنة خشية الافتتان بها، وأن يدع مالا بأس به حذرًا مما به بأس، وأن يجانب الفضول من المبـاحـات خشية الـوقـوع في المكروه، ومجانبة من يجاهر بارتكابها ويحسنها ويدعو إليها، ويتهاون بها ولايبالي ماركب منها، فإن مخالطة مثل هذا داعية إلى سخط الله تعالى وغضبه ولا يخالطه إلا من سقط من قلبه تعظيم الله تعالى وحرماته.

ومن علامات تعظيم النهي: أن يغضب لله عز وجل إذا انتهكت محارمه وأن يجد في قلبه حزنًا وكسرة إذا عصي الله تعالى في أرضه، ولم يطع بإقامة حدوده وأوامره، ولم يستطع هو أن يغير ذلك.

ومن علامات تعظيم الأمر والنهي: أن لايسترسل مع الرخصة إلى حد يكون صاحبه جافياً غير مستقيم على المنهج الوسط. مثال ذلك:



أن السنة وردت بالابراد بالظهر في شدة الحر فالترخص الجافي أن يبرد إلى فوات الوقت أو مقاربة خروجه فيكون مترخصاً جافياً.

وحكمة هذه الرخصة أن الصلاة في شدة الحر تمنع صاحبها من الخشوع والحضور، ويفعل العبادة بتكره وضجر.

فمن حكمة الشارع ﷺ : أن أمرهم بتأخيرها حتى ينكسر الحر، فيصلي العبد بقلب حاضر، يحصل له مقصود الصلاة من الخشوع والإقبال على الله تعالى.

ومن هذا نهيه ﷺ أن يصلى بحضرة الطعام أو عند مدافعة البول والغائط لتعلق قلبه من ذلك بما يشوش عليه مقصود الصلاة ولايحصل المراد منها فمن فقه الرجل في عبادته أن يقبل على شغله فيعمله ثم يفرغ قلبه للصلاة فيقوم فيها وقد فرغ قلبه لله تعالى ونصب وجهه له، وأقبل بكليته عليه، فركعتان من هذه الصلاة يغفر للمصلي بهما ماتقدم من ذنبه والمقصود أن لايترخص ترخصًا جافيًا.

ومن ذلك أنه رخص للمسافر في الجمع بين الصلاتين عند العذر وتعذر فعل كل صلاة في وقتها لمواصلة السير وتعذر النزول أو تعسره عليه. فإذا أقام في المنزل اليومين والثلاثة، أو أقام اليوم فجمعه بين الصلاتين لاموجب له لتمكنه من فعل كل صلاة في وقتها من غير مشقة فالجمع ليس سنة راتبة كما يعتقد أكثر المسافرين أن سنة السفر الجمع سواء وجد عذر أو لم يوجد بل الجمع رخصة عارضة. والقصر سنة راتبة فسنة المسافر قصر الرباعية سواء كان له عذر أو لم يكن. وأما جمعه بين الصلاتين فحاجة ورخصة فهذا لون وهذا لون.



ومن هذا أن الشبع في الأكل رخصة غير محرمة. فلا ينبغي أن يجفو العبد فيها حتى يصل به الشبع إلى حد التخمة والإمتلاء فيتطلب مايصرف به الطعام، فيكون همه بطنه قبل الأكل وبعده، بل ينبغي للعبد أن يجوع ويشبع ويدع الطعام وهو يشتهيه. وميزان ذلك قول النبي ﷺ: «ثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه» ولايجعل الثلاثة الأثلاث كلها للطعام وحده.

وأما تعريض الأمر والنهي للتشديد الغالي، فهو كمن يتوسوس في الوضوء متغالياً فيه حتى يفوت الوقت أو يردد تكبيرة الإحرام إلى أن تفوته مع الإمام قراءة الفاتحة أو يكاد تفوته الركعة، أو يتشدد في الورع الغالي حتى لايكاد يأكل شيئاً من طعام عامة المسلمين، خشية دخول الشبهات عليه. ولقد دخل هذا الورع الفاسد على بعض العباد الذين نقص حظهم من العلم حتى امتنع أن يأكل شيئًا من بلاد الإسلام، وكان يتقوت بما يحمل إليه من بلاد النصارى، ويبعث بالقصد لتحصيل ذلك فأوقعه الجهل المفرط والغلو الزائد في إساءة الظن بالمسلمين، وحسن الظن بالنصارى. نعوذ بالله من الخذلان. فحقيقة التعظيم للأمر والنهي أن لايعارضا بترخص جاف، ولايعرضا لتشديد غال. فإن المقصود هو الصراط المستقيم الموصل إلى الله عز وجل بسالكه.

ومـا أمر الله عز وجل بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان إما تقصير وتفريط، وإما إفراط وغلو، فلا يبالي بما ظفر من العبد من الخطئين.





فإنه يأتي إلى قلب العبد فيشيمه[1] فإن وجد فيه فتوراً وتوانياً وترخيصاً أخذه من هذه الخطة فثبطه وأقعده، وضربه بالكسل والتواني والفتور، وفتح له باب التأويلات والرجاء وغير ذلك حتى ربما ترك العبد المأمور جملة.

وإن وجد عنده حذراً وجداً وتشميراً ونهضة ويأس أن يأخذه من هذا الباب أمره بالاجتهاد الزائد، وسول له أن هذا مايكفيك وهمتك فوق هذا. وينبغي لك أن تزيد على العاملين، وأن لاترقد إذا رقدوا ولا تفطر إذا أفطروا، وأن لاتفتر إذا فتروا، وإذا غسل أحدهم يديه ووجهه ثلاث مرات فاغسل أنت سبعًا، وإذا توضأ للصلاة فاغتسل أنت لها ونحو ذلك من الإفراط والتعدي، فيحمله على الغلو والمجاوزة وتعدي الصراط المستقيم. كما يحمل الأول على التقصير دونه وأن لايقربه. ومقصوده من الرجلين إخراجهما عن الصراط المستقيم هذا بأن لايقربه ولايدنو منه، وهذا بأن يجاوزه ويتعداه، وقد فتن بهذا أكثر الخلق ولاينجي من ذلك إلا علم راسخ وإيمان وقوة على محاربته ولزوم الوسط. والله المستعان.

ومن علامات تعظيم الأمر والنهي: أن لايحمل الأمر على علة تضعف الإنقياد والتسليم لأمر الله عز وجل، بل يسلم لأمر الله تعالى وحكمه ممتثلا ما أمر به سواء ظهرت له حكمته أو لم تظهر فإن ظهرت

---

(١) أصل الشيم للنظر إلى البرق ومن شأنه أن يبدو ويخفى بسرعة تشبه استراق الشيطان للنظرة والتطلع إلى القلب بذلك أ هـ.
من حاشية الأصل وفي نسخة (فيستامه) ولعل الصواب فيشمه.





له حكمة الشرع في أمره ونهيه حمله ذلك على مزيد الإنقياد والبذل والتسليم، ولا يحمله ذلك على الإنسلاخ منه وتركه كما حمل ذلك كثيراً من زنادقة الفقراء والمنتسبين إلى التصوف فإن الله عز وجل شرع الصلوات الخمس إقامة لذكره واستعمالا للقلب والجوارح واللسان في العبودية، وإعطاء كل منها قسطه من العبودية التي هي المقصود بخلق العبد فوضعت الصلاة على أكمل مراتب العبودية[1].

ما ينجي العبد من الشيطان ويحصل به الفوز في الدنيا والآخرة

روى الإمام أحمد رضي الله عنه والترمذي من حديث الحارث الأشعري عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله سبحانه وتعالى أمر يحيى ابن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بها ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها وأنه كاد يبطىء بها. فقال له عيسى عليه السلام: إن الله تعالى أمرك بخمس كلمات لتعمل بها وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها. فإما أن تأمرهم وإما أن آمرهم فقال يحيى: أخشى إن سبقتني بها أن يخسف بي أو أعذب. فجمع الناس في بيت المقدس فامتلأ المسجد وقعدوا على الشرف. فقال: إن الله تبارك وتعالى أمرني بخمس كلمات أن أعملهن وأن آمركم أن تعملوا بهن. **أولاهن**: أن تعبدوا الله ولاتشركوا به شيئاً، وإن مثل من أشرك بالله كمثل رجل اشترى عبدًا من خالص ماله بذهب أو ورق فقال: هذه داري وهذا عملي، فاعمل وأد إلي. فكان يعمل ويؤدي إلى غير سيده فأيكم يرضى أن

(١) من الوابل الصيب باختصار.





يكون عبده كذلك، وإن الله أمركم **بالصلاة**: فإذا صليتم فلا تلتفتوا. فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته مالم يلتفت، **وأمركم بالصيام**: فإن مثل ذلك كمثل رجل في عصابة معه صرة فيها مسك، فكلهم يعجب أو يعجبه ريحه، وإن ريح الصائم أطيب عند الله تعالى من ريح المسك. **وأمركم بالصدقة**: فإن مثل ذلك مثل رجل أسره العدو فأوثقوا يده إلى عنقه وقدموه ليضربوا عنقه. فقال: أنا أفتدي نفسي منكم بالقليل والكثير. ففدى نفسه منهم، **وأمركم أن تذكروا الله تعالى**: فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو في أثره سراعاً. حتى إذا أتى على حصن حصين فأحرز نفسه منهم. كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله تعالى» قال النبي ﷺ: «وأنا آمركم بخمس الله أمرني بهن: السمع، والطاعة، والجهاد، والهجرة، والجماعة. فإنه من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يراجع، ومن ادعى دعوى الجاهلية فإنه من جثى جهنم» فقال رجل: يارسول الله، وإن صلى وصام؟ قال: «وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم. فادعوا بدعوى الله الذي سماكم المسلمين المؤمنين عباد الله». قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

فقد ذكر ﷺ في هذا الحديث العظيم الشأن الذي ينبغي لكل مسلم حفظه وتعقله مانيجي من الشيطان ومايحصل للعبد به الفوز والنجاة في دنياه وأخراه[1]

---

(١) من الوابل الصيب.



شرح مايتعلق بالتوحيد

فذكر مثل الموحد والمشرك. فالموحد: كمن عمل لسيده في داره وأدى لسيده ما استعمله فيه.

والمشرك: كمن استعمله سيده في داره فكان يعمل ويؤدي خراجه وعمله إلى غير سيده، فهكذا المشرك يعمل لغير الله في دار الله تعالى ويتقرب إلى عدو الله تعالى بنعم الله تعالى.

ومعلوم أن العبد من بني آدم لو كان عنده مملوك كذلك لكان أمقت المماليك عنده، وكان أشد شيء غضباً عليه وطرداً له وإبعاداً وهو مخلوق مثله كلاهما في نعمة غيرهما، فكيف برب العالمين الذي ما بالعبد من نعمة فمنه وحده لاشريك له، ولا يأتي بالحسنات إلا هو، ولايصرف السيئات إلا هو، وهو وحده المنفرد بخلق عبده ورحمته وتدبيره ورزقه ومعافاته وقضاء حوائجه فكيف يليق به مع هذا أن يعدل به غيره في الحب والخوف والرجاء والحلف والنذر والمعاملة، فيحب غيره كما يحبه أو أكثر. ويخاف غيره ويرجوه كما يخافه أو أكثر، وشواهد أحوالهم، بل وأقوالهم وأعمالهم ناطقة بأنهم يحبون أندادهم من الأحياء والأموات ويخافونهم ويرجونهم ويعاملونهم ويطلبون رضاهم، ويهربون من سخطهم أعظم مما يحبون الله تعالى ويخافون ويرجون ويهربون من سخطه، وهذا هو الشرك الذي لايغفره الله عز وجل.

قال الله سبحانه وتعالى: **﴿إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون**



ذلك لمن يشاء﴾ والظلم عند الله عز وجل يوم القيامة له دواوين ثلاثة: ديوان لايغفر الله منه شيئاً وهو: الشرك به. فإن الله لا يغفر أن يشرك به. وديوان لايترك الله تعالى منه شيئاً وهو: ظلم العباد بعضهم بعضاً، فإن الله تعالى يستوفيه كله. وديوان لايعبأ الله به شيئاً وهو: ظلم العبد نفسه بينه وبين ربه عز وجل، فإن هذا الديوان أخف الدواوين وأسرعها محواً، فإنه يمحى بالتوبة والاستغفار، والحسنات الماحية، والمصائب المكفرة ونحو ذلك.

بخلاف ديوان الشرك: فإنه لايمحى إلا بالتوحيد، وديوان المظالم: فإنه لايمحى إلا بالخروج منها إلى أربابها واستحلالهم منها.

ولما كان الشرك أعظم الدواوين الثلاثة عند الله عز وجل حرم الجنة على أهله. فلا يدخل الجنة نفس مشركة. وإنما يدخلها أهل التوحيد. فإن التوحيد هومفتاح بابها. فمن لم يكن معه مفتاح لم يفتح له بابها، وكذلك إن أتى بمفتاح لا أسنان له لم يمكن الفتح به.

وأسنان هذا المفتاح هي: الصلاة، والصيام، والزكاة، والحج، والجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وبر الوالدين. فأي عبد اتخذ في هذه الدار مفتاحاً صالحاً من التوحيد وركب فيه أسناناً من الأوامر. جاء يوم القيامة إلى باب الجنة ومعه مفتاحها الذي لايفتح إلا به. فلم يعقه عن الفتح عائق اللهم إلا أن تكون له ذنوب وخطايا وأوزار لم يذهب عنه أثرها في هذه الدار بالتوبة والإستغفار. فإنه يحبس عن الجنة حتى يتطهر منها، وإن لم يطهره الموقف وأهواله وشدائده فلابد من

دخول النار ليخرج خبثه فيها ويتطهر من درنه ووسخه. ثم يخرج منها فيدخل الجنة فإنها دار الطيبين لا يدخلها إلا طيب.

قال سبحانه وتعالى: ﴿**الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة**﴾.

وقال تعالى: ﴿**وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين**﴾. فعقب دخولها على الطيب بحرف الفاء الذي يؤذن بأنه سبب للدخول أي بسبب طيبكم قيل لكم ادخلوها.

وأما النار: فإنها دار الخبث في الأقوال، والأعمال، والمآكل والمشارب، ودار الخبيثين، فالله تعالى يجمع الخبيث بعضه إلى بعض فيركمه كما يركم الشيء بعضه على بعضه، ثم يجعله في جهنم مع أهله. فليس فيها إلا خبيث.

ولما كان الناس على ثلاث طبقات: طيب لا يشوبه خبث، وخبيث لا طيب فيه، وآخرون فيهم خبث وطيب. كانت دورهم ثلاثة: دارالطيب المحض، ودار الخبث المحض، وهاتان الداران لا تفنيان ودار لمن معه خبث وطيب، وهي الدار التي تفنى وهي دار العصاة فإنه لا يبقى في جهنم من عصاة الموحدين أحد. فإنهم إذا عذبوا بقدر جزائهم أخرجوا من النار فأدخلوا الجنة. ولا يبقى إلا دار الطيب المحض، ودار الخبث المحض[1].

(١) من الوابل الصيب.



شـــرح مايتعلق بالصـــلاة

قوله في الحديث: «وأمركم بالصلاة فإذا صليتم فلا تلتفتوا فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته مالم يلتفت».

الالتفات المنهي عنه في الصلاة قسمان:

أحدهما: التفات القلب عن الله عز وجل إلى غير الله تعالى.

والثاني: التفات البصر. وكلاهما منهي عنه. ولايزال الله مقبلاً على عبده مادام العبد مقبلاً على صلاته. فإذا التفت بقلبه أو بصره أعرض الله تعالى عنه. وقد سئل رسول الله ﷺ عن التفات الرجل في صلاته فقال: «اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد». وفي أثر يقول الله تعالى إلى خير مني إلى خير مني. ومثال من يلتفت في صلاته ببصره أو بقلبه مثل رجل قد استدعاه السلطان، فأوقفه بين يديه وأقبل يناديه ويخاطبه وهو في خلال ذلك يلتفت عن السلطان يميناً وشمالاً. وقد انصرف قلبه عن السلطان فلا يفهم مايخاطبه به. لأن قلبه ليس حاضراً معه، فما ظن هذا الرجل أن يفعل به السلطان، أفليس أقل المراتب في حقه أن ينصرف من بين يديه ممقوتاً مبعداً قد سقط من عينيه. فهذا المصلي لايستوي والحاضر القلب المقبل على الله تعالى في صلاته. الذي قد أشعر قلبه عظمة من هو واقف بين يديه: فامتلأ قلبه من هيبته، وذلت عنقه له. واستحي من ربه تعالى أن يقبل على غيره أو يلتفت عنه. وبين صلاتيهما كما قال حسان بن عطية: إن الرجلين ليكونان في الصلاة الواحدة وإن مابينهما في الفضل كما بين السماء والأرض. وذلك أن أحدهما: مقبل

بقلبه على الله عز وجل. والآخر: ساه غافل. فإذا أقبل العبد على مخلوق مثله وبينه وبينه حجاب لم يكن إقبالاً ولا تقريباً فما الظن بالخالق عز وجل. وإذا أقبل على الخالق عز وجل وبينه وبينه حجاب الشهوات والوساوس والنفس مشغوفة بها، ملأى منها فكيف يكون ذلك إقبالاً، وقد ألهته الوساوس والأفكار وذهبت به كل مذهب.

والعبد إذا قام في الصلاة غار الشيطان منه، فإنه قد قام في أعظم مقام وأقربه وأغيظه للشيطان وأشده عليه فهو يحرص ويجتهد كل الاجتهاد أن لايقيمه فيه. بل لايزال به يعده ويمنيه وينسيه، ويجلب عليه بخيله ورجله حتى يهون عليه شأن الصلاة، فيتهاون بها فيتركها. فإن عجز عن ذلك منه وعصاه العبد وقام في ذلك المقام أقبل عدو الله تعالى حتى يخطر بينه وبين نفسه ويحول بينه وبين قلبه فيذكره في الصلاة مالم يكن يذكر قبل دخوله فيها، حتى ربما كان قد نسي الشيء والحاجة وأيس منها فيذكره إياها في الصلاة ليشغل قلبه بها، ويأخذه عن الله عز وجل، فيقوم فيها بلا قلب، فلا ينال من إقبال الله تعالى وكرامته وقربه مايناله المقبل على ربه عز وجل الحاضر بقلبه في صلاته، فينصرف من صلاته مثل مادخل فيها بخطاياه وذنوبه وأثقاله لم تخف عنه بالصلاة. فالصلاة إنما تكفر سيئات من أدى حقها، وأكمل خشوعها ووقف بين يدي الله تعالى بقلبه وقالبه. فهذا إذا انصرف منها وجد خفة في نفسه وأحس بأثقال قد وضعت عنه. فوجد نشاطاً وراحة وروحاً، حتى يتمنى أنه لم يكن خرج منها، لأنها قرة عينه ونعيم روحه، وجنة قلبه ومستراحه في الدنيا. فلا



يزال كأنه في سجن وضيق حتى يدخل فيها فيستريح بها لا منها. فالمحبون يقولون: نصلي فنستريح بصلاتنا.

كما قال إمامهم وقدوتهم ونبيهم ﷺ: «يا بلال أرحنا بالصلاة»، ولم يقل أرحنا منها.

وقال ﷺ: «جعلت قرة عيني في الصلاة». فمن جعلت قرة عينه في الصلاة كيف تقر عينه ﷺ بدونها، وكيف يطيق الصبر عنها.

فصلاة هذا الحاضر بقلبه الذي قرة عينه في الصلاة هي التي تصعد ولها نور وبرهان حتى يستقبل بها الرحمن عز وجل فتقول: حفظك الله تعالى كما حفظتني.

وأما صلاة المفرط المضيع لحقوقها وحدودها وخشوعها فإنها تلف كما يلف الثوب الخلق ويضرب بها وجه صاحبها وتقول: ضيعك الله كما ضيعتني. وقد روى في حديث مرفوع رواه بكر بن بشر عن سعيد ابن سنان عن أبي الزاهرية عن أبي شجرة عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما يرفعه أنه قال: «ما من مؤمن يتم الوضوء إلى أماكنه ثم يقوم إلى الصلاة في وقتها فيؤديها لله عز وجل لم ينقص من وقتها وركوعها وسجودها ومعالمها شيئاً إلا رفعت له إلى الله عز وجل بيضاء مسفرة يستضيء بنورها ما بين الخافقين حتى ينتهي بها إلى الرحمن عز وجل، ومن قام إلى الصلاة فلم يكمل وضوءها وأخرها عن وقتها واسترق ركوعها وسجودها ومعالمها رفعت عنه سوداء مظلمة ثم لا تجاوز شعر رأسه تقول: ضيعك الله كما ضيعتني»[1].

(١) من الوابل الصيب.





مايتجلى لصاحب القلب العامر بالإيمـــان من المعاني الجليلة في الصـــلاة

إذا وقف في الصلاة صاحب القلب العامر بمحبة الله وخشيته والرغبة فيه وإجلاله وتعظيمه، وقف بقلب مخبت خاشع له قريب منه سليم من معارضات السوء، قد امتلأت أرجاؤه بالهيبة وسطع فيه نور الإيمان، وكشف عنه حجاب النفس ودخان الشهوات فيرتع في رياض معـاني القرآن، وخالط قلبه بشاشة الإيمان بحقائق الأسماء والصفـات وعلوهـا وجـلالها وكمالها الأعظم، وتفرد الرب سبحانه بنعوت جلاله، وصفات كماله، فاجتمع همه على الله وقرت عينه به وأحس بقربه من الله قرباً لانظير له ففرغ قلبه له وأقبل عليه بكليته، وهـذا الإقبال منه بين إقبالين من ربه فإنه سبحانه أقبل عليه أولاً فانجذب قلبه إليه بإقباله، فلما أقبل على ربه حظي منه بإقبال آخر أتم من الأول.

وهاهنا عجيبة من عجائب الأسماء والصفات تحصل لمن تفقه قلبه في معاني القرآن وخالط بشاشة الإيمان بها قلبه بحيث يرى لكل اسم وصفه موضعاً من صلاته ومحلاً منها: فإنه إذا انتصب قائماً بين يدي الـرب تبارك وتعالى شاهد بقلبه قيوميته. وإذا قال الله أكبر شاهد كبرياءه. وإذا قال سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك. شاهد بقلبه ربًا منزهًا عن كل عيب، سالمًا من كل نقص، محمودًا بكل حمد، فحمده يتضمن وصفه بكل كمال، وذلك يستلزم براءته من كل نقص تبارك اسمه فلا يذكر على قليل





إلا كثره، ولا على خير إلا أنماه وبارك فيه، ولا على آفة إلا أذهبها، ولا على الشيطان إلا رده خاسئاً داحراً وكمال الاسم من كمال مسماه فإذا كان هذا شأن اسمه ـ الذي لايضر معه شيء في الأرض ولا في السماء ـ فشأن المسمى أعلا وأجل. وتعالى جده أي: ارتفعت عظمته وجلت فوق كل عظمة وعلا شأنه على كل شأن وقهر سلطانه على كل سلطان، فتعالى جده أن يكون معه شريك في ملكه وربوبيته أو في إلٰهيته أو في أفعاله أو في صفاته كما قال مؤمنوا الجن: ﴿**وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولداً**﴾ فكم في هذه الكلمات من تجل لحقائق الأسماء والصفات على قلب العارف بها. غير المعطل لحقائقها.

وإذا قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: فقد آوى إلى ركنه الشديد، واعتصم بحوله وقوته من عدوه الذي يريد أن يقطعه عن ربه ويباعده عن قربه ليكون أسوأ حالاً.

فإذا قال: ﴿**الحمد لله رب العالمين**﴾ وقف هنيهة يسيرة ينتظر جواب ربه له بقوله: حمدني عبدي فإذا قال: ﴿**الرحمٰن الرحيم**﴾ انتظر الجواب بقوله: أثنى علي عبدي، فإذا قال: ﴿**مالك يوم الدين**﴾ انتظر جوابه بقوله يمجدني عبدي. فيالذة قلبه وقرة عينه وسرور نفسه بقول ربه: عبدي ثلاث مرات، فوالله لولا ماعلى القلوب من دخان الشهوات وغيم النفوس لاستطيرت فرحاً وسروراً بقول ربها وفاطرها ومعبودها حمدني عبدي، وأثنى علي عبدي، ومجدني عبدي، ثم يكون لقلبه مجال من شهود هذه الأسماء الثلاثة



التي هي أصول الأسماء الحسنى، وهي الله والرب والرحمٰن، فشاهد قلبه من ذكر اسم الله تبارك وتعالى إلهاً معبوداً موجوداً مخوفاً لايستحق العبادة غيره ولاتنبغي إلا له، قد عنت له الوجوه وخضعت له الموجودات، وخشعت له الأصوات تسبح له السمٰوات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده. **﴿وله من في السمٰوات والأرض كل له قانتون﴾** وكذلك خلق السمٰوات والأرض وما بينهما وخلق الجن والإنس والطير والوحش والجنة والنار، وكذلك أرسل الرسل وأنزل الكتب وشرع الشرائع وألزم العباد الأمر والنهي.

وشاهد من ذكر اسمه **﴿رب العالمين﴾** قيوماً قام بنفسه وقام به كل شيء، فهو قائم على كل نفس بخيرها وشرها قد استوى على عرشه، وتفرد بتدبير ملكه، فالتدبير كله بيديه، ومصير الأمور كلها إليه، فمراسيم التدبيرات نازلة من عنده على أيدي ملائكته بالعطاء والمنع، والخفض والرفع، والإحياء والإماتة، والتوبة والعزل، والقبض والبسط، وكشف الكروب، وإغاثة الملهوفين، وإجابة المضطرين **﴿يسأله من في السمٰوات والأرض كل يوم هو في شأن﴾** لامانع لما أعطى ولا معطي لما منع، ولا معقب لحكمه ولا راد لأمره ولا مبدل لكلماته، تعرج الملائكة والروح إليه وتعرض الأعمال أول النهار وآخره عليه، فيقدر المقادير، ويوقت المواقيت، ثم يسوق المقادير إلى مواقيتها قائماً بتدبير ذلك كله وحفظه ومصالحه.

ثم يشهد عند ذكر اسم الرحمٰن جل جلاله رباً محسناً إلى خلقه بأنواع الإحسان متحبباً إليهم بصنوف النعم، وسع كل شيء رحمة



وعلماً، وأوسع كل مخلوق نعمة وفضلاً، فوسعت رحمته كل شيء، ووسعت نعمته كل حي، فبلغت رحمته حيث بلغ علمه، فاستوى على عرشه برحمته، وخلق خلقه برحمته، وأنزل كتبه برحمته، وأرسل رسله برحمته، وشرع شرائعه برحمته، وخلق الجنة برحمته، والنار أيضاً برحمته، فإنها سوطه الذي يسوق به عباده المؤمنين إلى جنته، ويطهر بها أدران الموحدين من أهل معصيته. وسجنه الذي يسجن فيه أعداءه من خليقته.

فتأمل مافي أمره ونهيه ووصاياه ومواعظه من الرحمة البالغة، والنعمة السابغة ومافي حشوها من الرحمة والنعمة. فالرحمة هي السبب المتصل منه بعباده، كما أن العبودية هي السبب المتصل منهم به، فمنهم إليه العبودية، ومنه إليهم الرحمة. ومن أخص مشاهد الاسم شهود المصلي نصيبه من الرحمة الذي أقامه بها بين يدي ربه، وأهله لعبوديته ومناجاته وأعطاه ومنع غيره، وأقبل بقلبه وأعرض بقلب غيره، وذلك من رحمته به. فإذا قال: ﴿**مالك يوم الدين**﴾ فهنا شهد المجد الذي لايليق بسوى الملك الحق المبين، فيشهد ملكاً قاهراً قد دانت له الخليقة، وعنت له الوجوه، وذلت لعظمته الجبابرة، وخضع لعزته كل عزيز، فيشهد بقلبه ملكاً على عرش السماء مهيمناً لعزته تعنو له الوجوه وتسجد، وإذا لم تعطل صفة حقيقة الملك اطلعته على شهود حقائق الأسماء والصفات التي تعطيلها تعطيل لملكه وجحد له، فإن الملك الحق التام الملك لايكون إلا حيًا قيومًا سميعًا بصيرًا مدبرًا قادرًا متكلمًا آمرًا ناهيًا، مستويًا على





سرير مملكتـه، يرسـل إلى أقاصي مملكته بأوامره، فيرضى على من يستحق الـرضا ويثيبه ويكرمه ويدنيه، ويغضب على من يستحق الغضب ويعاقبه ويهينه ويقصيه، فيعذب من يشاء ويرحم من يشاء، ويعطي من يشاء ويقرب من يشاء، ويقصي من يشاء، له دار عذاب وهي النار، وله دار سعادة عظيمة وهي الجنة.

فمن أبطل شيئاً من ذلك أو جحده وأنكر حقيقته فقد قدح في ملكه سبحانه وتعالى ونفى عنه كماله وتمامه. وكذلك من أنكر عموم قضائه وقدره فقد أنكر عموم ملكه وكماله، فيشهد المصلي مجد الرب تعـالى في قولـه: ﴿**مـالك يوم الدين**﴾ فإذا قال: ﴿**إياك نعبد وإياك نستعـين**﴾ ففيهـا سر الخلق والأمر والدنيا والآخرة، وهي متضمنة لأجل الغايات وأفضل الوسائل، فأجل الغايات عبوديته، وأفضل الـوسـائـل إعانته. فلا معبود يستحق العبادة إلا هو ولامعين على عبـادته غيره. فعبادته أعلى الغايات، وإعانته أجل الوسائل. وقد أنزل الله سبحانه وتعالى مائة كتاب وأربعة كتب، جمع معانيها في أربعـة وهي التـوراة والإنجيل والقـرآن والزبور، وجمع معانيها في القـرآن، وجمـع معانيه في المفصل، وجمع معانيه في الفاتحة، وجمع معانيها في ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾. وقد اشتملت هذه الكلمة على نوعي التوحيد. وهما توحيد الربوبية وتوحيد الإلهية، وتضمنت التعبـد باسم الرب واسم الله فهو يعبد بألوهيته ويستعان بربوبيته ويهدي إلى الصراط المستقيم برحمته. فكان أول السورة ذكر اسم الله والرب والرحمن. تطابقا لأجل المطالب من عبادته وإعانته وهدايته.





وهـو المنفـرد بإعطاء ذلك كله لايعين على عبادته سواه، ولايهدي سواه. ثم يشهـد الداعي بقوله: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ شدة فاقتـه وضرورته إلى هذه المسألة التي ليس هو إلى شيء أشد فاقة وحاجة منه إليها ألبتة. فإنه محتاج إليه في كل نفس وطرفة عين.

وهـذا المطلوب من هذا الدعاء لايتم إلا بالهداية إلى الطريق الموصـل إليه سبحانه، والهداية فيه، وهي هداية التفصيل وخلق القدرة على الفعل وإراداته وتكوينه وتوفيقه لإيقاعه على الوجه المرضي المحبوب للرب سبحانه وتعالى وحفظه عليه من مفسداته حال فعله وبعد فعله.

ولما كان العبد مفتقراً في كل حال إلى هذه الهداية في جميع مايأتيه ويذره من أمور قد أتاها على غير الهداية فهو يحتاج إلى التوبة منها. وأمور هدي إلى أصلها دون تفصيلها، أو هدي إليها من وجه دون وجه، فهو يحتاج إلى تمام الهداية فيها ليزداد هدى، وأمور هو يحتاج إلى أن يحصـل له من الهـداية فيهـا بالمستقبل مثل ماحصل له في الماضي، وأمور هو خال عن اعتقاد فيها فهو يحتاج إلى الهداية فيها، وأمور لم يفعلها فهو يحتاج إلى فعلها على وجه الهداية، وأمور قد هدي إلى الاعتقـاد الحق والعمل والصواب فيها، فهو محتاج إلى الثبات عليها، إلى غير ذلك من أنواع الهدايات، فرض الله سبحانه عليه أن يسألـه هذه الهـداية في أفضـل أحواله مرات متعددة في اليوم والليلة. ثم بين أن أهـل هذه الهداية هم المختصون بنعمته دون المغضـوب عليهم، وهم الـذين عرفـوا الحق ولم يتبعـوه، ودون



الضالين، وهم الذين عبدوا الله بغير علم. فالطائفتان اشتركتا في القول في خلقه وأمره وأسمائه وصفاته بغير علم، فسبيل المنعم عليهم مغايرة لسبيل أهل الباطل كلها علماً وعملاً.

فلما فرغ من هذا الثناء والدعاء والتوحيد شرع له أن يطبع على ذلك بطابع من التأمين يكون كالخاتم له وافق فيه ملائكة السماء. وهذا التأمين من زينة الصلاة كرفع اليدين الذي هو زينة الصلاة واتباع للسنة. وتعظيم أمر الله، وعبودية اليدين وشعار الانتقال من ركن إلى ركن. ثم يأخذ في مناجاة ربه بكلامه واستماعه من الإمام بالإنصات وحضور القلب وشهوده.

وأفضل أذكار الصلاة: ذكر القيام، وأحسن هيئة المصلي: هيئة القيام، فخصت بالحمد والثناء والمجد وتلاوة كلام الرب جل جلاله[1].

الصلاة المقبولة ومراتب الناس في الصلاة

فالصلاة المقبولة والعمل المقبول: أن يصلي العبد صلاة تليق بربه عز وجل فإذا كانت صلاة لربه تبارك وتعالى وتليق به كانت مقبولة.

والمقبول من العمل قسمان:

أحدهما: أن يصلي العبد ويعمل سائر الطاعات وقلبه متعلق بالله عز وجل ذاكر لله عز وجل على الدوام. فأعمال هذا العبد تعرض على

---

(١) من كتاب الصلاة لشمس الدين بن القيم رحمه الله وإن شئت المزيد فراجع بقية هذا البحث في هذا الكتاب ترى العجب العجاب.

الله عز وجل حتى تقف قبالته فينظر الله عز وجل إليها، فإذا نظر إليها رآها خالصة لوجهه مرضية قد صدرت عن قلب سليم مخلص محب لله عز وجل متقرب إليه أحبها ورضيها وقبلها.

والقسم الثاني: أن يعمل العبد الأعمال على العادة والغفلة وينوي بها الطاعة والتقرب إلى الله، فأركانه مشغولة بالطاعة وقلبه لاه عن ذكر الله، وكذلك سائر أعماله، فإذا رفعت أعمال هذا إلى الله عز وجل لم تقف تجاهه ولا يقع نظره عليها، ولكن توضع حيث توضع دواوين الأعمال حتى تعرض عليه يوم القيامة فتميز، فيثيبه على ماكان له منها، ويرد عليه مالم يرد وجهه به منها. فهذا قبوله لهذا العمل إثابته عليه بمخلوق من مخلوقاته من القصور والأكل والشرب والحور العين. وإثابة الأول رضا العمل لنفسه ورضاه عن معاملة عامله وتقريبه منه وإعلاء درجته ومنزلته، فهذا يعطيه بغير حساب. فهذا لون والأول لون.

والناس في الصلاة على مراتب خمسة:

أحدها: مرتبة الظالم لنفسه المفرط، وهو الذي انتقص من وضوئها ومواقيتها وحدودها وأركانها.

الثاني: من يحافظ على مواقيتها وحدودها وأركانها الظاهرة ووضوئها لكن قد ضيع مجاهدة نفسه في الوسوسة فذهب مع الوساوس والأفكار.

الثالث: من حافظ على حدودها وأركانها وجاهد نفسه في دفع



الوساوس والأفكار، فهو مشغول بمجاهدة عدوه لئلا يسرق صلاته فهو في صلاة وجهاد.

الرابع: من إذا قام إلى الصلاة أكمل حقوقها وأركانها وحدودها واستغرق قلبه مراعاة حدودها وحقوقها لئلا يضيع شيئاً منها بل همه كله مصروف إلى إقامتها كما ينبغي وإكمالها وإتمامها، قد استغرق قلبه شأن الصلاة وعبودية ربه تبارك وتعالى فيها.

الخامس: من إذا قام إلى الصلاة، قام إليها كذلك، ولكن مع هذا قد أخذ قلبه ووضعه بين يدي ربه عز وجل ناظراً بقلبه إليه مراقباً له ممتلئاً من محبته وعظمته كأنه يراه ويشاهده، وقد اضمحلت تلك الوساوس والخطرات وارتفعت حجبها بينه وبين ربه، فهذا بينه وبين غيره في الصلاة أفضل وأعظم مما بين السماء والأرض، وهذا في صلاته مشغول بربه عز وجل قرير العين به.

فالقسم الأول: معاقب، والثاني: محاسب، والثالث: مكفر عنه، والرابع: مثاب، والخامس: مقرب من ربه؛ لأن له نصيباً ممن جعلت قرة عينه في الصلاة فمن قرت عينه بصلاته في الدنيا قرت عينه بقربه من ربه عز وجل في الآخرة، وقرت عينه به في الدنيا، ومن قرت عينه بالله قرت به كل عين، ومن لم تقر عينه بالله تعالى تقطعت نفسه على الدنيا حسرات. وقد روي أن العبد إذا قام يصلي قال الله عز وجل: ارفعوا الحجب، فإذا إلتفت قال: ارخوها، وقد فسر هذا الإلتفات بالتفات القلب عن الله عز وجل إلى غيره. فإذا التفت إلى غيره أرخى الحجاب بينه وبين العبد فدخل الشيطان وعرض عليه

أمور الدنيا وأراه إياها في صورة المرآة، وإذا أقبل بقلبه على الله ولم يلتفت لم يقدر الشيطان على أن يتوسط بين الله تعالى وبين ذلك القلب، وإنما يدخل الشيطان إذا وقع الحجاب، فإن فر إلى الله تعالى وأحضر قلبه فر الشيطان، فإن التفت حضر الشيطان، فهو هكذا شأنه وشأن عدوه في الصلاة[1].

السبب في حضور القلب في الصـلاة

وبيان أنواع القلوب:

إنما يقوى العبد على حضوره في الصلاة واشتغاله فيها بربه عز وجل إذا قهر شهوته وهواه، وإلا فقلب قد قهرته الشهوة وأسره الهوى ووجد الشيطان فيه مقعداً تمكن فيه، كيف يخلص من الوساوس والأفكار.

والقلوب ثلاثة:

قلب خال من الإيمان وجميع الخير، فذلك قلب مظلم قد استراح الشيطان من إلقاء الوساوس إليه لأنه قد اتخذه بيتاً ووطناً وتحكم فيه بما يريد وتمكن منه غاية التمكن.

القلب الثاني: قد استنار بنور الإيمان وأوقد فيه مصباحه لكن عليه ظلمة الشهوات وعواصف الأهوية، فللشيطان هناك إقبال وإدبار ومجالات ومطامع، فالحرب دول وسجال. وتختلف أحوال هذا الصنف بالقلة والكثرة، فمنهم من أوقات غلبته لعدوه أكثر، ومنهم

---

(١) من الوابل الصيب.

من أوقات غلبة عدوه له أكثر. ومنهم من هو تارة وتارة.

القلب الثالث: قلب محشو بالإيمان قد استنار بنور الإيمان وانقشعت عنه حجب الشهوات. وأقلعت عنه تلك الظلمات، فلنوره في صدره إشراق ولذلك الإشراق إيقاد لو دنا منه الوسواس احترق به. فهو كالسماء التي حرست بالنجوم فلو دنا منها الشيطان يتخطاها رجم فاحترق. وليست السماء بأعظم حرمة من المؤمن، وحراسة الله تعالى له أتم من حراسة السماء، والسماء متعبد الملائكة ومستقر الوحي وفيها أنوار الطاعات، وقلب المؤمن مستقر التوحيد والمحبة والمعرفة والإيمان وفيه أنوارها، فهو حقيق أن يحرس ويحفظ من كيد العدو فلا ينال منه شيئاً إلا خطفة[1].

شرح مايتعلق بالصيام

قوله ﷺ: «وأمركم بالصيام فإن مثل ذلك مثل رجل في عصابة معه صرة فيها مسك فكلهم يعجب أو يعجبه ريحه، وإن ريح الصيام أطيب عند الله من ريح المسك».

إنما مثل ﷺ ذلك بصاحب الصرة التي فيها المسك لأنها مستورة عن العيون مخبوءة تحت ثيابه كعادة حامل المسك، وهكذا الصائم صومه مستور عن مشاهدة الخلق لاتدركه حواسهم.

والصائم: هو الذي صامت جوارحه عن الآثام. ولسانه عن الكذب والفحش وقول الزور، وبطنه عن الطعام والشراب، وفرجه

(١) من الوابل الصيب.



عن الرفث، فإن تكلم لم يتكلم بما يجرح صومه، وإن فعل لم يفعل مايفسد صومه، فيخرج كلامه كله نافعاً صالحاً، وكذلك أعماله. فهي بمنزلة الرائحة التي يشمها من جالس حامل المسك، كذلك من جالس الصائم انتفع بمجالسته؛ وأمن فيها من الزور والكذب والفجور والظلم. هذا هو الصوم المشروع لامجرد الإمساك عن الطعام والشراب.

ففي الحديث الصحيح «من لم يدع قول الزور والعمل به والجهل فليس لله حاجة أن يدع طعامه وشرابه»، وفي الحديث: «رب صائم حظه من صيامه الجوع والعطش».

فالصوم: هو صوم الجوارح عن الآثام، وصوم البطن عن الشراب والطعام، فكما أن الطعام والشراب يقطعه ويفسده، فهكذا الآثام تقطع ثوابه وتفسد ثمرته. فتصيره بمنزلة من لم يصم.

وقد اختلف في وجود هذه الرائحة من الصائم هل هي في الدنيا أو في الآخرة على قولين: وفصل النزاع في المسألة أن يقال: حيث أخبر النبي ﷺ بأن ذلك الطيب يكون يوم القيامة، فلأنه الوقت الذي يظهر فيه ثواب الأعمال وموجباتها من الخير والشر، فيظهر للخلق طيب ذلك الخلوف على المسك، كما يظهر فيه رائحة دم المكلوم في سبيله كرائحة المسك، وكما تظهر فيه السرائر وتبدوا على الوجوه وتصير علانية ويظهر فيه قبح رائحة الكفار وسواد وجوههم. وحيث أخبر بأن ذلك حين يخلف وحين يمسون فلأنه وقت ظهور أثر العبادة، ويكون حينئذ طيبها على ريح المسك عند الله تعالى وعند



ملائكته، وإن كانت تلك الرائحة كريهة للعباد، فرب مكروه عند الناس محبوب عند الله تعالى، وبالعكس، فإن الناس يكرهونه لمنافرته طباعهم، والله تعالى يستطيبه ويحبه لموافقته أمره ورضاه ومحبته فيكون عنده أطيب من ريح المسك عندنا، فإذا كان يوم القيامة ظهر هذا الطيب للعباد وصار علانية وهكذا سائر آثار الأعمال من الخير والشر. وإنما يكمل ظهورها ويصير علانية في الآخرة.

وقد يقوى العمل ويتزايد حتى يستلزم ظهور بعض أثره على العبد في الدنيا في الخير والشر كما هو مشاهد بالبصر والبصيرة.

قال ابن عباس: إن للحسنة ضياء في الوجه ونوراً في القلب وقوة في البدن وسعة في الرزق ومحبة في قلوب الخلق. وإن للسيئة سواداً في الوجه وظلمة في القلب ووهناً في البدن ونقصاً في الرزق وبغضة في قلوب الخلق.

وقال عثمان بن عفان: ماعمل رجل عملاً إلا ألبسه الله تعالى رداءه، إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وهذا أمر معلوم يشترك فيه وفي العلم به أصحاب البصائر وغيرهم، حتى إن الرجل الطيب البر لتشم منه رائحة طيبة وإن لم يمس طيباً فتظهر طيب رائحة روحه على بدنه وثيابه. والفاجر بالعكس والمزكوم الذي أصابه الهوى لايشم لاهذا ولاهذا بل زكامه يحمله على الإنكار. فهذا فصل الخطاب في هذه المسألة والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب[1].

---

(١) من الوابل الصيب باختصار.



شــرح مايتعلق بالصدقــة

قولـه: وأمـركم بالصدقة فإن مثل ذلك مثل رجل أسره العدو فأوثقوا يده إلى عنقه وقدموه ليضربوا عنقه فقال أنا أفدي نفسي منكم بالقليل والكثير ففدى نفسه منهم.

هذا أيضاً من الكلام الذي برهانه وجوده، ودليله وقوعه. فإن للصدقة تأثيراً عجيباً في دفع أنواع البلاء ولو كانت من فاجر أو ظالم بل من كافر فإن الله تعالى يدفع بها عنه أنواعاً من البلاء وهذا أمر معلوم عند الناس خاصتهم وعامتهم وأهل الأرض كلهم مقرون به لأنهم جربوه.

وقد روى الترمذي في جامعه من حديث أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: «إن الصدقة تطفىء غضب الرب وتدفع ميتة السوء، وكما أنها تطفىء غضب الرب تبارك وتعالى فهي تطفىء الذنوب والخطايا كما يطفىء الماء النار».

وفي الترمذي عن معاذ بن جبل قال كنت مع رسول الله ﷺ في سفر فأصبحت يومـاً قريباً منه ونحن نسير فقال: «ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جنة، والصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار، وصلاة الرجل في جوف الليل شعار الصالحين ثم تلا ﴿**تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون**﴾» وفي بعض الآثار باكروا بالصدقة فإن البلاء لايتخطى الصدقة.





وفي تمثيل النبي ﷺ ذلك بمن قدم ليضرب عنقه فافتدى نفسه منهم بماله كفاية، فإن الصدقة تفدي العبد من عذاب الله تعالى، فإن ذنوبه وخطاياه تقتضي هلاكه فتجيء الصدقة تفديه من العذاب وتفكه منه.

ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح لما خطب النساء يوم العيد: «يامعشر النساء تصدقن ولو من حليكن فإني رأيتكن أكثر أهل النار». وكأنه حثهن ورغبهن على مايفدين به أنفسهن من النار.

وفي الصحيحين عن عدي بن حاتم قال: قال رسول الله ﷺ: «مامنكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ماقدم، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ماقدم، وينظر بين يديه فلا يرى إلى النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار ولو بشق تمرة».

وفي حديث أبي ذر أنه قال: سألت رسول الله ﷺ ماذا ينجي العبد من النار؟ قال: «الإيمان بالله». قلت: يانبي الله مع الإيمان عمل؟ قال: «أن ترضخ مما خولك الله. أو ترضخ مما رزقك الله». قلت: يانبي الله فإن كان فقيراً لايجد مايرضخ قال: «يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر». قلت: إن كان لايستطيع أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. قال: «فليعن الأخرق». قلت: يارسول الله أرأيت إن كان لايحسن أن يصنع قال: «فليعن مظلوماً». قلت: يارسول الله أرأيت إن كان ضعيفاً لايستطيع أن يعين مظلوماً. قال: «ماتريد أن تترك في صاحبك من خير ليمسك أذاه عن الناس». قلت: يارسول الله أرأيت إن فعل هذا يدخل الجنة قال: «مامن



مؤمن يصيب خصلة من هذه الخصال إلا أخذت بيده حتى أدخلته الجنة». ذكره البيهقي في كتاب شعب الإيمان.

وقال عمر بن الخطاب: ذكر لي أن الأعمال تتباهى فتقول الصدقة: أنا أفضلكم.

وقد قال تعالى: ﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾.

وكان عبدالرحمن بن عوف أو سعد بن أبي وقاص يطوف بالبيت وليس له دأب إلا هذه الدعوة: رب قني شح نفسي، رب قني شح نفسي. فقيل له: أما تدعو بغير هذه الدعوة؟ فقال: إذا وقيت شح نفسي فقد أفلحت. والفرق بين الشح والبخل: أن الشح هو شدة الحرص على الشيء والإحفاء في طلبه والاستقصاء في تحصيله وجشع النفس عليه، والبخل منع إنفاقه بعد حصوله وحبه وإمساكه، فهو شحيح قبل حصوله بخيل بعد حصوله فالبخل ثمرة الشح، والشح يدعو إلى البخل. والشح كامن في النفس فمن بخل فقد أطاع شحه، ومن لم يبخل فقد عصى شحه ووقي شره. وذلك هو المفلح ﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾. والسخي قريب من الله ومن خلقه وأهله، وقريب من الجنة، وبعيد عن النار، والبخيل بعيد من الله تعالى بعيد من خلقه بعيد من الجنة قريب من النار، فجود الرجل يحببه إلى أضداده وبخله يبغضه إلى أولاده.

ويظهر عيب المرء في الناس بخله ... ويستره عنهم جميعاً سخاؤه
تغط بأثواب السخاء فإنني ... أرى كل عيب فالسخاء غطاؤه
وقارن إذا قارنت حراً فإنما ... يزين ويزري بالفتى قرناؤه

وأقلل إذا ما اسطعت قولاً فإنه   إذا قل قول المرء قل خطاؤه
إذا قل مال المرء قل صديقه   وضاقت عليه أرضه وسماؤه
وأصبح لايدري وإن كان حازمًا   أقدامه خير له أم وراؤه
إذا المرء لم يختر صديقًا لنفسه   فناد به في الناس هذا جزاؤه

وحد السخاء: بذل مايحتاج إليه عند الحاجة، وأن يوصل ذلك إلى مستحقه بقدر الطاقة.

وإذا كان السخاء محموداً فمن وقف على حده سمي كريماً وكان للحمد مستوجباً، ومن قصر عنه كان بخيلاً وكان للذم مستوجباً.

والسخاء نوعان: فأشرفهما سخاؤك عما بيد غيرك.

والثاني: سخاؤك ببذل مافي يدك. فقد يكون الرجل من أسخى الناس وهو لايعطيهم شيئاً، لأنه سخا عما في أيديهم وهذا معنى قول بعضهم: السخاء: أن تكون بمالك متبرعاً، وعن مالك غيرك متورعاً.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: أوحى الله إلى إبراهيم ﷺ: أتدري لم أتخذتك خليلاً؟ قال: لا. قال: لأني رأيت العطاء أحب إليك من الأخذ. وهذه صفة من صفات الرب جل جلاله فإنه يعطي ولايأخذ ويطعم ولايطعم، وهو أجود الأجودين وأكرم الأكرمين، وأحب الخلق إليه من اتصف بمقتضيات صفاته، فإنه كريم يحب الكريم من عباده، وعالم يحب العلماء، وقادر يحب الشجعان، وجميل يحب الجمال. وفي الصحيح: «أن الله

تعالى وتر يحب الوتر». وهو سبحانه وتعالى رحيم يحب الرحماء وإنما يرحم من عباده الرحماء، وهو ستير يحب من يستر على عباده، وعفو يحب من يعفو عنهم، وغفور يحب من يغفر لهم، ولطيف يحب اللطيف من عباده ويبغض الفظ الغليظ القاسي الجعظري الجواظ، ورفيق يحب الرفق، وحليم يحب الحلم، وبر يحب البر وأهله، وعدل يحب العدل، وقابل المعاذير يحب من يقبل معاذير عباده، ويجازي عبده بحسب هذه الصفات فيه وجوداً وعدماً، فمن عفا عفا عنه، ومن غفر غفر له، ومن سامح سامحه، ومن حاقق حاققه، ومن رفق بعباده رفق به، ومن رحم خلقه رحمه، ومن أحسن إليهم أحسن إليه، ومن جاد عليهم جاد عليه، ومن نفعهم نفعه، ومن سترهم ستره، ومن صفح عنهم صفح عنه، ومن تتبع عورتهم تتبع عورته، ومن هتكهم هتكه وفضحه، ومن منعهم خيره منعه خيره، ومن شاق شاق الله تعالى به، ومن مكر مكر به، ومن خادع خادعه، ومن عامل خلقه بصفة عامله الله تعالى بتلك الصفة بعينها في الدنيا والآخرة.

فالله تعالى لعبده على حسب مايكون العبد لخلقه. ولهذا جاء في الحديث: «من ستر مسلماً ستره الله تعالى في الدنيا والآخرة، ومن نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله تعالى عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله تعالى حسابه، ومن أقال نادماً أقال الله تعالى عثرته، ومن أنظر معسراً أو وضع عنه أظله الله تعالى في ظل عرشه»؛ لأنه لما جعله في ظل الإنظار والصبر ونجاه من حر المطالبة وحرارة تكلف الأداء مع عسرته وعجزه نجاه الله تعالى من حر الشمس يوم القيامة إلى ظل العرش.

وكذلك الحديث الذي في الترمذي وغيره عن النبي ﷺ أنه قال في خطبته يوماً: «يامعشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان إلى قلبه، لاتؤذوا المسلمين، ولاتتبعوا عوراتهم فإنه من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف بيته. فكما تدين تدان. وكن كيف شئت فإن الله تعالى لك كما تكون أنت له ولعباده».

ولما أظهر المنافقون الإسلام وأسروا الكفر أظهر الله تعالى لهم يوم القيامة نوراً على الصراط وأظهر لهم أنهم يجوزون الصراط وأسر لهم أن ينطفىء نورهم، وأن يحال بينهم وبين الصراط من جنس أعمالهم. وكذلك من يظهر للخلق خلاف مايعلمه الله فيه، فإن الله تعالى يظهر له في الدنيا والآخرة أسباب الفلاح والنجاح والفوز ويبطن له خلافها. وفي الحديث: «من راءى راءى الله به، ومن سمع سمع الله به».

والمقصود: أن الكريم المتصدق يعطيه الله ما لا يعطي البخيل الممسك ويوسع عليه في ذاته وخلقه ورزقه ونفسه وأسباب معيشته جزاء له من جنس عمله[1].

---

(١) من الوابل الصيب باختصار.

شرح مايتعلق بذكر الله تعالى

وقوله ﷺ : «وأمركم أن تذكروا الله تعالى فإن مثل ذلك مثل رجل خرج العدو في أثره سراعاً حتى إذا أتى إلى حصن حصين فأحرز نفسه منهم كذلك العبد لايحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله تعالى» فلو لم يكن في الذكر إلا هذه الخصلة الواحدة لكان حقيقاً بالعبد أن لايفتر لسانه من ذكر الله تعالى وأن لايزال لهجاً بذكره، فإنه لايحرز نفسه من عدوه إلا بالذكر، ولا يدخل عليه العدو إلا من باب الغفلة، فهو يرصده فإذا غفل وثب عليه وافترسه. وإذا ذكر الله تعالى انخنس عدو الله تعالى وتصاغر وانقمع حتى يكون كالوصع[1] وكالذباب، ولهذ سمي الوسواس الخناس أي يوسوس في الصدور، فإذا ذكر الله تعالى خنس أي كف وانقبض، قال ابن عباس: الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإذا سها وغفل: وسوس، فإذا ذكر الله تعالى: خنس.

وفي مسند الإمام أحمد عن عبدالعزيز بن أبي سلمة الماجشون عن زياد بن أبي زياد مولى عبدالله بن عباس بن أبي ربيعة أنه بلغه عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: «ماعمل آدمي عملاً قط انجى له من عذاب الله من ذكر الله عز وجل». وقال معاذ: قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من انفاق الذهب والفضة ومن أن

---

(١) الوصع: طائر أصغر من العصفور.



تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم» قالوا: بلى يارسول الله. قال: «ذكر الله عز وجل».

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال كان رسول الله ﷺ يسير في طريق مكة فمر على جبل يقال له جمدان فقال: «سيروا هذا جمدان سبق المفردون» قيل: وما المفردون يارسول الله؟ قال: «الذاكرون الله كثيراً والذاكرات».

وفي السنن عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مامن قوم يقومون من مجلس لايذكرون الله تعالى فيه إلا قاموا عن مثل جيفة حمار وكان عليهم حسرة».

وفي رواية الترمذي: «ماجلس قوم مجلساً لم يذكروا الله فيه ولم يصلوا على نبيهم إلا كان عليهم ترة فإن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم».

وفي صحيح مسلم عن الأغر أبي مسلم قال: أشهد على أبي هريرة وأبي سعيد أنهما شهدا على رسول الله ﷺ أنه قال: «لايقعد قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده».

وفي الترمذي عن عبدالله بن بشر أن رجلاً قال: يارسول الله إن أبواب الخير كثيرة ولا أستطيع القيام بكلها، فأخبرني بما شئت أتشبث به ولا تكثر عليّ فأنسى. وفي رواية: إن شرائع الإسلام قد كثرت عليّ وأنا قد كبرت، فأخبرني بشيء أتشبث به قال: «لايزال لسانك رطباً بذكر الله تعالى».



وفي الترمذي أيضاً عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ سئل: أي العباد أفضل وأرفع درجة عند الله يوم القيامة قال: «الذاكرون الله كثيراً» قيل يارسول الله: ومن الغازي في سبيل الله قال: «لو ضرب بسيفه في الكفار والمشركين حتى يتكسر ويختضب دماً كان الذاكر لله تعالى أفضل منه درجه».

وفي صحيح البخاري عن أبي موسى رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه مثل الحي والميت».

وفي الصحيحين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تبارك وتعالى أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً، وإن تقرب إلي ذراعاً تقربت منه باعاً، وإذا أتاني يمشي أتيته هرولة».

وفي الترمذي عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا». قالوا: يارسول الله، وما رياض الجنة؟ قال: «حلق الذكر».

وفي الترمذي أيضاً عن النبي ﷺ عن الله عز وجل أنه يقول: «إن عبدي كل عبدي الذي يذكرني وهو ملاق قرنه».

وهذا الحديث هو فصل الخطاب في التفضيل بين الذاكر والمجاهد، فإن الذاكر المجاهد أفضل من الذاكر بلا جهاد ومن المجاهد الغافل، والذاكر بلا جهاد أفضل من المجاهد الغافل عن



الله تعالى. فأفضل الذاكرين المجاهدون، وأفضل المجاهدين الذاكرون.

وقال الله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون**﴾ فأمرهم بالذكر الكثير والجهاد معاً ليكونوا على رجاء من الفلاح.

وقد قال الله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً**﴾.

وقال تعالى: ﴿**والذاكرين الله كثيراً والذاكرات**﴾ أي كثيراً.

وقال تعالى: ﴿**فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً**﴾ ففيه الأمر بالذكر بالكثرة والشدة لشدة حاجة العبد إليه وعدم استغنائه عنه طرفة عين. فأي لحظة خلا فيها العبد عن ذكر الله عز وجل كانت عليه لا له، وكان خسرانه فيها أعظم مما ربح في غفلته عن الله.

وقال بعض العارفين: لو أقبل عبد على الله تعالى كذا وكذا سنة ثم أعرض عنه لحظة لكان مافاته أعظم مما حصله.

وذكر البيهقي عن عائشة عن النبي ﷺ أنه قال: «مامن ساعة تمر بابن آدم لايذكر الله تعالى فيها إلا تحسر عليها يوم القيامة».

وذكر عن معاذ بن جبل يرفعه أيضاً: ليس تحسر أهل الجنة إلا على ساعة مرت بهم لم يذكروا الله عز وجل فيها.

وعن أم حبيبة زوج النبي ﷺ. قالت: قال رسول الله ﷺ: «كلام ابن آدم كله عليه لاله، إلا أمراً بمعروف أو نهياً عن منكر أو ذكراً لله عز وجل».



وعن معاذ بن جبل قال: سألت رسول الله ﷺ أي الأعمال أحب إلى الله عز وجل؟ قال: «أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله عز وجل».

وقال أبو الدرداء رضي الله تعالى عنه: لكل شيء جلاء، وإن جلاء القلوب ذكر الله عز وجل.

وذكر البيهقي مرفوعاً من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه كان يقول: «لكل شيء صقالة، وإن صقالة القلوب ذكر الله عز وجل، ومامن شيء أنجى من عذاب الله عز وجل من ذكر الله عز وجل» قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله عز وجل؟ قال: «ولو أن يضرب بسيفه حتى ينقطع».

ولا ريب أن القلب يصدأ كما يصدأ النحاس والفضة وغيرهما، وجلاؤه بالذكر، فإنه يجلوه حتى يدعه كالمرآة البيضاء. فإذا ترك صدىء، فإذا ذكر جلاه.

وصدأ القلب بأمرين: بالغفلة والذنب، وجلاؤه بشيئين: بالاستغفار والذكر. فمن كانت الغفلة أغلب أوقاته كان الصدأ متراكماً على قلبه، وصدأه بحسب غفلته وإذا صدأ القلب لم تنطبع فيه صور المعلومات على ماهي عليه فيرى الباطل في صورة الحق والحق في صورة الباطل، لأنه لما تراكم عليه الصدأ واسود وركبه الران فسد تصوره وإدراكه، فلا يقبل حقاً ولاينكر باطلاً. وهذا أعظم عقوبات القلب.



وأصل ذلك من الغفلة واتباع الهوى فإنهما يطمسان نور القلب ويعميان بصره، قال تعالى: ﴿**ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً**﴾ فإذا أراد العبد أن يقتدي برجل فلينظر.

هل هو من أهل الذكر أو من الغافلين؟ وهل الحاكم عليه الهوى أو الوحي؟ فإن كان الحاكم عليه هو الهوى وهو من أهل الغفلة كان أمره فرطاً. ومعنى الفرط قد فسر بالتضييع، أي أمره الذي يجب أن يلزمه ويقوم به وبه رشده وفلاحه ضائع قد فرط فيه. وفسر بالإسراف، أي قد أفرط، وفسر بالإهلاك، وفسر بالخلاف للحق. وكلها أقوال متقاربة.

والمقصود أن الله سبحانه وتعالى نهى عن طاعة من جمع هذه الصفات، فينبغي للرجل أن ينظر في شيخه وقدوته ومتبوعه فإن وجده كذلك فليبعد منه وإن وجده ممن غلب عليه ذكر الله عز وجل واتباع السنة، وأمره غير مفروط عليه بل هو حازم في أمره فليستمسك بغرزه، ولافرق بين الحي والميت إلا بالذكر، فمثل الذي يذكر ربه والذي لايذكر ربه كمثل الحي والميت. وفي المسند مرفوعاً أكثروا ذكر الله تعالى حتى يقال مجنون[1].

---

(١) من الوابل الصيب.



غـراس الجنـة

والذكر هو غراس الجنة، فقد روى الترمذي في جامعه من حديث عبدالله بن مسعود رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لقيت ليلة أسري بي إبراهيم الخليل عليه السلام فقال: يامحمد أقرىء أمتك السلام وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة، عذبة الماء، وأنها قيعان وأن غراسها: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر». قال الترمذي: حديث حسن غريب من حديث ابن مسعود.

وفي الترمذي من حديث أبي الزبير عن جابر عن النبي ﷺ قال: «من قال سبحان الله وبحمده غرست له نخلة في الجنة». قال الترمذي حديث حسن صحيح[1].

عظم مارتب على الذكر من الفضل والعطاء

والعطاء والفضل الذي رتب على الذكر لم يرتب على غيره من الأعمال: ففي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه. أن رسول الله ﷺ قال: «من قال: لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، في يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي. ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر منه. ومن قال: سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة حطت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر».

(١) من الوابل الصيب. فإن أردت المزيد فعليك بمراجعة الأصل.



وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لأن أقول سبحان الله والحمد لله ولا إلٰه إلا الله والله أكبر، أحب إلي مما طلعت عليه الشمس».

وفي الترمذي من حديث أنس أن رسول الله ﷺ قال: «من قال حين يصبح أو يمسي: اللهم إني أصبحت أشهدك وأشهد حملة عرشك وملائكتك وجميع خلقك أنك أنت الله لا إلٰه إلا أنت وأن محمداً عبدك ورسولك، أعتق الله ربعه من النار. ومن قالها مرتين أعتق الله نصفه من النار. ومن قالها ثلاثاً أعتق الله ثلاثة أرباعه من النار. ومن قالها أربعاً أعتقه الله من النار».

وفيه عن ثوبان أن رسول الله ﷺ قال: «من قال حين يمسي وإذا أصبح: رضيت بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولاً، كان حقاً على الله أن يرضيه».

وفي الترمذي «من دخل السوق فقال: لا إلٰه إلا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لايموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير، كتب الله له ألف ألف حسنة، ومحا عنه ألف ألف سيئة، ورفع له ألف ألف درجة»[1].

---

(١) من الوابل الصيب.



الأمان من نسـيان الله تعالى

دوام ذكر الرب تبارك وتعالى يوجب الأمان من نسيانه الذي هو سبب شقاء العبد في معاشه ومعاده، فإن نسيان الرب سبحانه وتعالى يوجب نسيان نفسه ومصالحها قال تعالى: ﴿**ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون**﴾ وإذا نسي العبد نفسه أعرض عن مصالحها ونسيها واشتغل عنها فهلكت وفسدت ولابد، كمن له زرع أو بستان أو ماشية أو غير ذلك مما صلاحه وفلاحه بتعاهده والقيام عليه، فأهمله ونسيه واشتغل عنه بغيره وضيع مصالحه فإنه يفسد ولابد. هذا مع إمكان قيام غيره مقامه فيه فكيف الظن بفساد نفسه وهلاكها وشقائها إذا أهملها ونسيها واشتغل عن مصالحها وعطل مراعاتها وترك القيام عليها بما يصلحها، فما شئت من فساد وهلاك وخيبة وحرمان. وهذا هو الذي صار أمره كله فرطاً فانفرط عليه أمره وضاعت مصالحه، وأحاطت به أسباب القطوع والخيبة والهلاك. ولا سبيل إلى الأمان من ذلك إلا بدوام ذكر الله تعالى واللهج به، وأن لايزال اللسان رطباً به، وأن يتولى منزلة حياته التي لاغناء له عنها ومنزلة غذائه الذي إذا فقده فسد جسمه وهلك، وبمنزلة الماء عند شدة العطش وبمنزلة اللباس في الحر والبرد وبمنزلة السكن في شدة الشتاء والسموم فحقيق بالعبد أن ينزل ذكر الله منه بهذه المنزلة وأعظم، فأين هلاك الروح والقلب وفسادهما من هلاك البدن وفساده. هذا هلاك لابد منه، وقد يعقبه صلاح الأبد.

وأما هلاك القلب والروح، فهلاك لايرجى معه صلاح ولا



فلاح، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ولو لم يكن في فوائد الذكر وإدامته إلا هذه الفائدة وحدها لكفى بها، فمن نسي الله تعالى أنساه نفسه في الدنيا ونسيه في العذاب يوم القيامة. قال تعالى: **﴿ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى. قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى﴾** أي تنسى في العذاب كما نسيت آياتي فلم تذكرها ولم تعمل لها. وإعراضه عن ذكره يتناول إعراضه عن الذكر الذي أنزله، وهو أن يذكر الذي أنزله في كتابه، وهو المراد بتناول إعراضه عن أن يذكر ربه بكتابه وأسمائه وصفاته وأوامره وآلائه ونعمه، فإن هذه كلها توابع إعراضه عن كتاب ربه تعالى، فإن الذكر في الآية إما مصدر مضاف إلى الفاعل أو مضاف إضافة الأسماء المحضة، من أعرض عن كتابي ولم يتله ولم يتدبره ولم يعمل به ولا فهمه، فإن حياته ومعيشته لاتكون إلا مضيقة عليه منكدة معذباً فيها. والضنك: الضيق والشدة والبلاء. ووصف المعيشة نفسها بالضنك مبالغة. وفسرت هذه المعيشة بعذاب البرزخ.

والصحيح: أنها تتناول معيشته في الدنيا وحاله في البرزخ، فإنه يكون في ضنك في الدارين، وهو شدة وجهد وضيق. والآخرة ينسى في العذاب وهذا عكس أهل السعادة والفلاح فإن حياتهم في الدنيا أطيب الحياة ولهم في البرزخ وفي الآخرة أفضل الثواب.





قال تعالى: **﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة﴾** فهذا في الدنيا ثم قال: **﴿ولنجزينهم أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون﴾** فهذ في البرزخ والآخرة.

وقال تعالى: **﴿والذين هاجروا في الله من بعد ماظلموا لنبوءنهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون﴾**.

وقال تعالى: **﴿وأن ستغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله﴾** فهذا في الآخرة.

وقال تعالى: **﴿قل ياعبادي الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة وأرض الله واسعة إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾**.

فهذه أربعة مواضع ذكر تعالى فيها أنه يجزي المحسن بإحسانه جزاءين جزاء في الدنيا وجزاء في الآخرة. فالإحسان له جزاء معجل ولابد، والإساءة لها جزاء معجل ولابد، ولو لم يكن إلا مايجازى به المحسن من إنشراح صدره وانفساح قلبه وسروره ولذاته بمعاملة ربه عز وجل وطاعته وذكره، ونعيم روحه بمحبته[١]. وذكره وفرحه بربه سبحانه وتعالى أعظم بما يفرح القريب من السلطان الكريم عليه بسلطانه. ومايجازى به المسيء من ضيق الصدر وقسوة القلب وتشتته وظلمته وحزازاته وغمه وهمه وحزنه وخوفه[٢] وهذا أمر لايكاد من له

---

(١) قد سقط من هنا جواب لو وأقله كلمة (لكفى).
(٢) جواب قوله (وما يجازى به المسيء). يعلم من القرينة في الجملة.



أدنى حس وحياة يرتاب فيه، بل الغموم والهموم والأحزان والضيق عقوبات عاجلة ونار دنيوية وجهنم حاضرة.

والإقبال على الله والإنابة إليه والرضاء به وعنه وإمتلاء القلب من محبته واللهج بذكره والفرح والسرور بمعرفته ثواب عاجل وجنة وعيش لانسبة لعيش الملوك إليه ألبتة.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لايدخل جنة الآخرة.

وقال لي مرة: مايصنع أعدائي بي أنا جنتي وبستاني في صدري، إن رحت فهي معي لاتفارقني، إن حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة.

وكان يقول في محبسه في القلعة: لو بذلت ملء هذه القلعة ذهباً ماعدل عندي شكر هذه النعمة. أو قال ماجزيتهم على ماتسببوا لي فيه من الخير، ونحو هذا.

وكان يقول في سجوده وهو محبوس: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك. ماشاء الله.

وقال لي مرة: المحبوس من حبس قلبه عن ربه تعالى، والمأسور من أسره هواه.

ولما دخل إلى القلعة وصار داخل سورها نظر إليه وقال: ﴿**فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب**﴾.

وعلم الله ما رأيت أحداً أطيب عيشاً منه قط. مع ماكان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية والنعيم بل ضدها، ومع ماكان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشاً، وأشرحهم صدراً، وأقواهم قلباً، وأسرهم نفساً، تلوح نضرة النعيم على وجهه. وكنا إذا اشتد بنا الخوف وساءت منا الظنون وضاقت بنا الأرض أتيناه، فماهو إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب ذلك كله وينقلب انشراحاً وقوة ويقيناً وطمأنينة.

فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه، وفتح لهم أبوابها في دار العمل، فآتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها.

وكان بعض العارفين يقول: لو علم الملوك وأبناء الملوك مانحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف.

وقال آخر: مساكين أهل الدنيا، خرجوا منها وماذاقوا أطيب مافيها. قيل ما أطيب مافيها. قال: محبة الله تعالى ومعرفته وذكره، أو نحو هذا.

فمحبة الله تعالى ومعرفته ودوام ذكره والسكون إليه والطمأنينة إليه وإفراده بالحب والخوف والرجاء والتوكل والمعاملة بحيث يكون هو وحده المستولي على هموم العبد وعزماته وإراداته، هو جنة الدنيا والنعيم الذي لايشبهه نعيم، وهو قرة عين المحبين وحياة العارفين.

وإنما تقر عيون الناس به على حسب قرة أعينهم بالله عز وجل، فمن قرت عينه بالله قرت به كل عين، ومن لم تقر عينه بالله تقطعت



نفسه على الدنيا حسرات. وإنها يصدق هذا من في قلبه حياة، وأما ميت القلب فيوحشك ماله ثم، فاستأنس بغيبته ما أمكنك، فإنك لايوحشك إلا حضوره عندك، فإذا ابتليت به فأعطه ظاهرك، وترحل عنه بقلبك، وفارقه بسرك، ولاتشتغل به عما هو أولى بك.

واعلم أن الحسرة كل الحسرة الاشتغال بمن لايجر عليك الاشتغال به إلا فوت نصيبك وحظك من الله عز وجل، وانقطاعك عنه وضياع وقتك، وضعف عزيمتك، وتفرق همك. فإذا بليت بهذا - ولابد لك منه - فعامل الله تعالى فيه واحتسب عليه ما أمكنك، وتقرب إلى الله تعالى بمرضاته فيه، واجعل اجتماعك به متجراً لك لاتجعله خسارة. وكن معه كرجل سائر في طريقه عرض له رجل وقفه عن سيره فاجتهد أن تأخذه معك وتسير به فتحمله ولا يحملك فإن أبى ولم يكن في سيره مطمع فلا تقف معه، ودعه ولا تلتفت إليه فإنه قاطع الطريق ولو كان من كان فانج بقلبك وضن بيومك وليلتك، لاتغرب عليك الشمس قبل وصول المنزلة فتؤخذ أو يطلع الفجر ثم[1] أنى لك بلحاقهم[2].

---

(١) (ثم) زودتها للبيان وفي الأصل بياض.

(٢) من الوابل الصيب باختصار.





أكـرم الخلق على الله تعالى

أكـرم الخلق على الله تعالى من المتقين، من لايزال لسانه رطباً بذكره، فإنه اتقاه في أمره ونهيه وجعل ذكره شعاره. فالتقوى أوجبت له دخول الجنة والنجاة من النار، وهذا هو الثواب والأجر.

والذكر يوجب له القرب من الله عز وجل والزلفى لديه، وهذه هي المنزلة.

وعمال الآخرة على قسمين:

منهم من يعمل على الأجر والثواب، ومنهم من يعمل على المنزلة والدرجة، فهو ينافس غيره في الوسيلة والمنزلة عند الله تعالى ويسابق إلى القرب منه.

وقد ذكر الله تعالى النوعين في سورة الحديد في قول الله تعالى: **﴿إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعف لهم ولهم أجر كريم﴾** فهؤلاء أصحاب الأجور والثواب. ثم قال: **﴿والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون﴾**.

فهؤلاء أصحاب المنزلة والقرب. ثم قال: **﴿والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم﴾** فقيل هذا عطف على الخبر من الذين آمنوا بالله ورسله أخبر عنهم بأنهم هم الصديقون وأنهم الشهداء الذين يشهدون على الأمم، ثم أخبر عنهم أن لهم أجراً وهو قوله تعالى: **﴿لهم أجرهم ونورهم﴾** فيكون قد أخبر عنهم بأربعة أمور أنهم صديقون، وشهداء. فهذه هي المرتبة والمنزلة.





وقيل: تم الكلام عند قوله تعالى: ﴿الصديقون﴾ ثم ذكر بعد ذلك حال الشهداء فقال: ﴿والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم﴾ فيكون قد ذكر المتصدقين أهل البر والإحسان. ثم المؤمنين الذين قد رسخ الإيمان في قلوبهم وامتلأوا منه، فهم الصديقون وهم أهل العلم والعمل، والأولون أهل البر والإحسان. ولكن هؤلاء أكمل صديقية منهم، ثم ذكر الشهداء وأنه تعالى يجري عليهم رزقهم ونورهم لأنهم لما بذلوا نفوسهم لله تعالى أثابهم الله تعالى عليها أن جعلهم أحياء عنده يرزقون فيجري عليهم رزقهم ونورهم فهؤلاء السعداء.

ثم ذكر الأشقياء فقال: ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم﴾.

وذكر البيهقي عن محمد بن كعب القرظي رحمه الله تعالى قال: قال موسى عليه السلام: يارب، أي خلقك أكرم عليك؟ قال: الذي لايزال لسانه رطباً بذكري. قال: يارب فأي خلقك أعلم؟ قال: الذي يلتمس إلى علمه علم غيره، قال: يارب أي خلقك أعدل؟ قال: الذي يقضي على نفسه كما يقضي على الناس قال: يارب أي خلقك أعظم ذنباً؟ قال: الذي يتهمني. قال: يارب وهل يتهمك أحد؟ قال: الذي يستخيرني ولا يرضى بقضائي.

وذكر أيضاً عن ابن عباس قال لما وفد موسى عليه السلام إلى طور سيناء قال: يارب أي عبادك أحب إليك؟ قال: الذي يذكرني ولا ينساني.





وقــال كعب: قال موسى عليه الســلام: يارب أقـريب أنت فأنـاجيك أم بعيد فأنـاديك؟ فقال تعالى: ياموسى أنا جليس من ذكرني. قال: إني أكون على حال أجلك عنها قال: ماهي؟ قال: عند الغائط والجنابة قال: أذكرني على كل حال[1].

وقال عبيد بن عمير: تسبيحة بحمد الله في صحيفة مؤمن خير له من جبال الدنيا تجري معه ذهباً.

وقال الحسن: إذا كان يوم القيامة نادى مناد: سيعلم الجمع من أولى بالكرم، أين الذين كانت **﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون﴾**؟ قال: فيقومون فيتخطون رقاب الناس. قال: ثم ينادي مناد: سيعلم أهل الجمع من أولى بالكرم، أين الذين كانت **﴿لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله﴾**؟ قال: فيقـومـون فيتخـطون رقاب الناس. قال: ثم ينادي مناد: وسيعلم أهـل الجمـع من أولى بالكرم، أين الحمادون لله على كل حال؟ قال: فيقومون وهم كثير. ثم يكون التنعيم والحساب فيمن بقي. وأتى رجل أبا مسلم الخولاني فقال له: أوصني يا أبا مسلم. قال: اذكر الله تعالى تحت كل شجرة ومدرة، فقال: زدني. فقال: اذكر الله تعالى حتى يحسبك الناس من ذكر الله تعالى مجنوناً. قال: وكان أبو مسلم يكثر ذكر الله تعالى. فرآه رجل وهو يذكر الله تعالى

(١) وذكر الله بالقلب في هذه الحال لا يكره بل مستحب لأنه لابد للقلب من ذكر، وأما الذكر باللسان في هذه الحال فليس مما شرع لنا ولا ندبنا إليه رسول الله ﷺ ولا نقل عن أحد من الصحابة رضي الله عنهم أ. هـ بالمعنى من الوابل الصيب.



فقال: أمجنون صاحبكم هذا فسمعه أبو مسلم فقال: ليس هذا بالجنون يا ابن أخي ولكن هذا ذو الحنون[1].

أصـــل موالاة الله عز وجل

الذكر أصل مولاة الله عز وجل ورأسها، والغفلة أصل معاداته ورأسها، فإن العبد لايزال يذكر ربه عز وجل حتى يحبه فيواليه، ولايزال يغفل عنه حتى يبغضه فيعاديه. قال الأوزعي: قال حسان بن عطية: ماعادى عبد ربه بشيء أشد عليه من أن يكره ذكره أو من يذكره. فهذه المعاداة سببها الغفلة، ولاتزال بالعبد حتى يكره ذكر الله ويكره من يذكره، فحينئذ يتخذه الله عدواً كما اتخذ الذاكر ولياً[2].

سبب صلاة الله عز وجل على عبده

الذكر يوجب صلاة الله عز وجل وملائكته على الذاكر ومن صلى الله تعالى عليه وملائكته فقد أفلح كل الفلاح وفاز كل الفوز.

قال سبحـانه وتعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً وسبحوه بكرة وأصيلاً. هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات إلى النور وكان بالمؤمنين رحيماً**﴾.

---

(١) من الوابل الصيب باختصار.

(٢) من الوابل الصيب.



فهذه الصلاة منه تبارك وتعالى ومن ملائكته إنما هو سبب الإخراج لهم من الظلمات إلى النور، فأي خير لم يحصل لهم، وإذا حصلت لهم الصلاة من الله تبارك وتعالى وملائكته وأخرجوهم من الظلمات إلى النور فأي خير لم يحصل لهم، وأي شر لم يندفع عنهم، فياحسرة الغافلين عن ربهم ماذا حرموا من خيره وفضله. وبالله التوفيق[1].

مجالس الملائكة[2]

مجالس الذكر: مجالس الملائكة، فليس من مجالس الدنيا لهم مجلس إلا مجلس يذكر الله تعالى فيه.

كما أخرج في الصحيحين من حديث الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله ملائكة فضلاً عن كتاب الناس، يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تعالى تنادوا: هلموا إلى حاجتكم. قال: فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا. قال: فيسألهم ربهم تعالى ـ وهو أعلم بهم ـ مايقول عبادي؟ قال: يقولون: يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك. قال: فيقول: هل رأوني؟ قال: فيقولون: لا والله مارأوك، قال: فيقول: كيف لو رأوني؟ قال: فيقولون: لو رأوك كانوا أشد عبادة لك وأشد لك تحميداً وتمجيداً وأكثر لك تسبيحاً. قال: فيقول: ما يسألوني؟ قالوا: يسألونك الجنة. قال: ويقول: هل

(١) من الوابل الصيب.

(٢) معناه أنهم ملائكة زائدون على الحفظة



رأوها؟ قال: ويقولون: لا والله يارب مارأوها. قال: فيقول: فيكف لو أنهم رأوها؟ قال: يقولون: لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصاً وأشد لها طلباً وأعظم فيها رغبة. فيقول: فمم يتعوذون؟ قال: يقولون: من النار. قال: يقول: وهل رأوها؟ قال: يقولون: لا والله يارب مارأوها. قال: فيقول: فكيف لو رأوها؟ قال: يقولون: لورأوها كانو أشد منها فراراً وأشد لها مخافة. قال: فيقول: فأشهدكم أني قد غفرت لهم. فيقول ملك من الملائكة: فيهم فلان ليس منهم، إنما جاء لحاجة. قال: هم الجلساء لايشقى بهم جليسهم».

فهذا من بركتهم على نفوسهم وعلى جليسهم فلهم نصيب من قوله: ﴿وجعلني مباركاً أين ما كنت﴾ فهكذا المؤمن مبارك أين حل، والفاجر مشؤم أين حل. فمجالس الذكر: مجالس الملائكة، ومجالس الغفلة: مجالس الشياطين، وكل مضاف إلى شكله وأشباهه وكل امرىء يصير إلى مايناسبه[1].

مباهات الله بالذاكرين ملائكته

إن الله عز وجل يباهي بالذاكرين ملائكته.

كما روى مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري قال: خرج معاوية على حلقة في المسجد فقال: ما أجلسكم؟ قالوا: جلسنا نذكر الله تعالى. قال: آلله ما أجلسكم إلا ذاك؟ قالوا: والله ما أجلسنا إلا ذاك. قال: أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم، وماكان أحد

---

(١) من الوابل الصيب.



بمنزلتي من رسول الله ﷺ أقل عنه حديثاً مني، وإن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه فقال: «ما أجلسكم؟» قالوا: جلسنا نذكر الله تعالى ونحمده على ماهدانا للإسلام ومنّ علينا بك. قال: «آلله ما أجلسكم إلا ذاك» قالوا: والله ما أجلسنا إلا ذاك. قال: «أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم ولكنه أتاني جبريل فأخبرني أن الله تبارك وتعالى يباهي بكم الملائكة» فهذه المباهات من الرب تبارك وتعالى دليل على شرف الذكر عنده ومحبته له، وأن له مزية على غيره من الأعمال[1].

المقصود بالأعمال الشرعية

جميع الأعمال إنما شرعت إقامة لذكر الله تعالى. والمقصود بها تحصيل ذكر الله تعالى.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وأقم الصلاة لذكري﴾.

قيل: المصدر مضاف إلى الفاعل أي لأذكرك بها.

وقيل: مضاف إلى المذكور أي لتذكروني بها، واللام على هذا لام التعليل.

وقيل: هي اللام الوقتية أي أقم الصلاة عند ذكري كقوله: ﴿أقم الصلاة لدلوك الشمس﴾ وقوله: ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة﴾ وهذا المعنى يراد بالآية، لكن تفسيرها به يجعل معناها فيه نظر، لأن هذه اللام الوقتية يليها أسماء الزمان والظروف، والذكر مصدر إلا أن

(١) من الوابل الصيب.





يقدر زمان محذوف أي عند وقت ذكري وهذا محتمل.

والأظهر أنها لام التعليل أي أقم الصلاة لأجل ذكري. ويلزم من هذا أن تكون إقامتها عند ذكره. وإذا ذكر العبد ربه فذكر الله تعالى سابق على ذكره، فإنه لما ذكره ألهمه ذكره فالمعاني الثلاثة حق.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿**أتل ما أوحي إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر**﴾.

فقيل: المعنى أنكم في الصلاة تذكرون الله وهو ذاكر من ذكره ولذكر الله تعالى إياكم أكبر من ذكركم إياه. وهذا يروى عن ابن عباس وسلمان وأبي الدرداء وابن مسعود رضي الله عنهم.

وذكر ابن أبي الدنيا عن فضيل بن مرزوق عن عطية: ﴿**ولذكر الله أكبر**﴾ قال: هو قوله تعالى: ﴿**فاذكروني أذكركم**﴾ فذكر الله تعالى لكم أكبر من ذكركم إياه.

وقال ابن زيد وقتادة: معناه: ولذكر الله أكبر من كل شيء.

وقيل لسلمان أي الأعمال أفضل؟ فقال: أما تقرأ القرآن ﴿**ولذكر الله أكبر**﴾ ويشهد لهذا حديث أبي الدرداء المتقدم «ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وخير لكم من إنفاق الذهب والورق» الحديث.

وكان شيخ الإسلام أبو العباس قدس الله روحه يقول: الصحيح أن معنى الآية أن الصلاة فيها مقصدان عظيمان، وأحدهما أعظم من الآخر، فإنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهي مشتملة على ذكر الله تعالى، ولما فيها من ذكر الله أعظم من نهيها عن الفحشاء والمنكر.

وذكر ابن أبي الدنيا عن ابن عباس أنه سئل: أي العمل أفضل؟



قال: ذكر الله أكبر.

وفي السنن عن عائشة عن النبي ﷺ قال: «إنما جعل الطواف بالبيت وبين الصفا والمروة ورمي الجمار لإقامة ذكر الله تعالى». رواه أبو داود والترمذي وقال حديث حسن صحيح[1].

أفضل أهل كل عمل صالح

أفضل أهل كل عمل أكثرهم فيه ذكراً لله عز وجل

فأفضل الصوام أكثرهم ذكراً لله عز وجل في صومهم

وأفضل المتصدقين أكثرهم ذكراً لله عز وجل

وأفضل الحجاج أكثرهم ذكراً لله عز وجل. وهكذا سائر الأحوال

وقد ذكر ابن أبي الدنيا حديثاً مرسلاً في ذلك أن النبي ﷺ سئل أي أهل المسجد خير؟ قال: «أكثرهم ذكراً لله عز وجل»، قيل أي الجنازة خير؟ قال: «أكثرهم ذكراً لله عز وجل»، قيل فأي المجاهدين خير؟ قال: «أكثرهم ذكراً لله عز وجل»، قيل فأي الحجاج خير؟ قال: «أكثرهم ذكراً لله عز وجل»، قيل وأي العبّاد خير؟ قال: «أكثرهم ذكراً لله عز وجل»، قال أبوبكر ذهب الذاكرون بالخير كله. وقال عبيد بن عمير: إن أعظمكم هذا الليل أن تكابدوه، وبخلتم على المال أن تنفقوه، وجبنتم عن العدو أن تقاتلوه فأكثروا من ذكر الله عز وجل[2].

---

(١) من الوابل الصيب.

(٢) من الوابل الصيب.





إدامة الذكر تنوب عن كثير من الطاعات

إدامة الذكر تنوب عن التطوعات وتقوم مقامها سواء كانت بدنية أو مالية، أو بدنية مالية كحج التطوع.

وقد جاء ذلك صريحاً في حديث أبي هريرة: أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يارسول الله ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم، يصلون كما نصلي ويصومون كما نصوم ولهم فضل أموالهم يحجون بها ويعتمرون ويجاهدون. فقال: «ألا أعلمكم شيئاً تدركون به من سبقكم، وتسبقون به من بعدكم، ولا أحد يكون أفضل منكم إلا من صنع مثل ماصنعتم» قالوا: بلى يارسول الله. قال: «تسبحون وتحمدون وتكبرون خلف كل صلاة» الحديث متفق عليه. فجعل الذكر عوضاً لهم عما فاتهم من الحج والعمرة والجهاد، وأخبر أنهم يسبقونهم بهذا الذكر، فلما سمع أهل الدثور بذلك عملوا به فازدادوا إلى صدقاتهم وعبادتهم بمالهم التعبد بهذا الذكر، فحازوا الفضيلتين، فنافسوا الفقراء وأخبروا رسول الله ﷺ بأنهم قد شاركوهم في ذلك وانفردوا عنهم بما لاقدرة لهم عليه فقال: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»[١].

---

(١) من الوابل الصيب.



آثار ذكر الله في اليسر والأمن والقوة

ذكر الله عز وجل يسهل الصعب، وييسر العسير ويخفف المشاق، فما ذكر الله عز وجل على صعب إلا هان، ولا على عسير إلا تيسر، ولا مشقة إلا خفت. ولا شدة إلا زالت، ولا كربة إلا انفرجت، فذكر الله تعالى هو الفرج بعد الشدة واليسر بعد العسر والفرج بعد الغم والهم.

يوضحه: أن ذكر الله عز وجل يذهب عن القلب مخاوفه كلها، وله تأثير عجيب في حصول الأمن، فليس للخائف الذي قد اشتد خوفه أنفع له من ذكر الله عز وجل، إذ بحسب ذكره يجد الأمن ويزول خوفه حتى كأن المخاوف التي يجدها أمان له، والغافل خائف مع أمنه حتى كأن ماهو فيه من الأمن كله مخاوف، ومن له أدنى حس قد جرب هذا وهذا والله المستعان.

والذكر يعطي الذاكر قوة، حتى إنه ليفعل مع الذكر مالم يظن فعله بدونه.

وقد شاهدت من قوة شيخ الإسلام ابن تيمية في سننه وكلامه وإقدامه وكتابته أمراً عجيباً، فكان يكتب في اليوم من التصنيف مايكتبه الناسخ في جمعة وأكثر.

وقد شاهد العسكر من قوته في الحرب أمراً عظيماً. وقد علم النبي



ﷺ ابنته فاطمة وعليًا رضي الله عنهما أن يسبحا كل ليلة إذا أخذا مضاجعهما ثلاثاً وثلاثين ويحمدا ثلاثاً وثلاثين ويكبرا أربعاً وثلاثين لما سألته الخادم وشكت إليه ماتقاسيه من الطحن والسعي والخدمة، فعلمها ذلك وقال إنه خير لكما من خادم، فقيل إن من داوم على ذلك وجد قوة في يومه مغنية عن خادم.

سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى يذكر أثراً في هذا الباب ويقول: إن الملائكة لما أمروا بحمل العرش قالوا: ياربنا كيف نحمل عرشك وعليه عظمتك وجلالك ووقارك؟ قال: لذلك خلقتكم، فأعادوا عليه ذلك مراراً فقال: قولوا: لاحول ولا قوة إلا بالله، فلما قالوا حملوه. حتى رأيت ابن أبي الدنيا قد ذكر هذا الأثر بعينه عن الليث بن سعد عن معاوية بن صالح قال حدثنا مشيختنا أنه بلغهم أن أول ماخلق الله عز وجل - حين كان عرشه على الماء - حملة العرش قالوا: ربنا لم خلقتنا؟ قال: خلقتكم لحمل عرشي. قالوا: ربنا ومن يقوى على حمل عرشك وعليه عظمتك وجلالك ووقارك. قال: لذا خلقتكم فأعادوا عليه ذلك مراراً فقال لهم: قولوا: لاحول ولاقوة إلا بالله، فحملوه.

وهذه الكلمة لها تأثير عجيب في معاناة الأشغال الصعبة، وتحمل المشاق، والدخول على الملوك، ومن يخاف، وركوب الأهوال، ولها أيضاً تأثير في دفع الفقراء كما روى ابن أبي الدنيا عن الليث بن سعد بن معاوية عن صالح عن أسد بن وداعة رضي الله عنه قال: قال



رسول الله ﷺ: «من قال لاحول ولاقوة إلا بالله مائة مرة في كل يوم لم يصبه فقر أبداً». وكان حبيب بن مسلمة يستحب إذا لقي عدواً أو ناهض حصناً قول: لاحول ولاقوة إلا بالله. وإنه ناهض يوماً حصناً للروم فانهزم، فقالها المسلمون وكبروا فانهدم الحصن[١].

الأمـــان من النفـــاق

كثرة ذكر الله عز وجل أمان من النفاق، فإن المنافقين قليلوا الذكر لله عز وجل. قال الله عز وجل في المنافقين: **﴿ولا يذكرون الله إلا قليلاً﴾**.

قال كعب: من أكثر ذكر الله عـز وجـل بريء من النفاق. ولهذا ـ والله أعلم ـ ختم الله سورة المنافقون بقوله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا لاتلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون﴾** فإن في ذلك تحذيراً من فتنة المنافقين الذين غفلوا عن ذكر الله عز وجل فوقعوا في النفاق.

وسئل بعض الصحابة رضي عنهم عن الخوارج: منافقون هم؟ قال: لا، المنافقون لايذكرون الله إلا قليلاً. فهذا من علامة النفاق قلة ذكر الله عز وجل، وكثرة ذكره أمان من النفاق، والله عز وجل أكرم من أن يبتلي قلباً ذاكراً بالنفاق، وإنما ذلك لقلوب غفلت عن ذكر الله عز وجل[٢].

---

(١) من الوابل باختصار وتصرف يسير.

(٢) من الوابل الصيب.





السبب في إنقاذ العبد نفسه من أعدائه الشياطين وحاجة كل واحد بل ضرورته إلى معرفة هذه الفائدة العظيمة

وهي أن الشياطين قد احتوشت العبد وهم أعداؤه فما ظنك برجل قد احتوشته أعداؤه الحنقون عليه غيظاً وأحاطوا به، وكل منهم يناله بما يقدر عليه من الشر والأذى، ولا سبيل إلى تفريق جمعهم عنه إلا بذكر الله عز وجل.

وفي هذا الحديث العظيم الشريف القدر الذي ينبغي لكل مسلم أن يحفظه، فنذكره بطوله لعموم فائدته وحاجة الخلق إليه، وهو حديث سعيد بن المسيب عن عبدالرحمن بن سمرة بن جندب: قال: خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً وكنا في صفة بالمدينة فقام علينا فقال: إني رأيت البارحة عجباً:

رأيت رجلاً من أمتي أتاه ملك الموت ليقبض روحه، فجاءه بره بوالديه فرد ملك الموت عنه.

ورأيت رجلاً من أمتي قد بسط عليه عذاب القبر، فجاءه وضوؤه فاستنقذه من ذلك.

ورأيت رجلاً من أمتي قد احتوشته الشياطين، فجاءه ذكر الله عز وجل فرد الشياطين عنه.

ورأيت رجلاً من أمتي قد احتوشته ملائكة العذاب، فجاءته صلاته فاستنقذته من أيديهم.

ورأيت رجلاً من أمتي يتلهب.

وفي رواية يلهث عطشاً كلما دنا من حوض منع وطرد، فجاءه



صيام شهر رمضان فسقاه وأرواه.

ورأيت رجلاً من أمتي ورأيت النبيين جلوساً حلقا حلقا كلما دنا إلى حلقة طرد، فجاءه غسله من الجنابة فأخذ بيده فأقعده إلى جنبي.

ورأيت رجلاً من أمتي بين يده ظلمة ومن خلفه ظلمة وعن يمينه ظلمة وعن يساره ظلمة ومن فوقه ظلمة ومن تحته ظلمة وهو متحير فيها، فجاءه حجه وعمرته فاستخرجاه من الظلمة وأدخلاه في النور.

ورأيت رجلاً من أمتي يتقي بيده وهج النار وشررها، فجاءته صدقته فصارت سترة بينه وبين النار وظللت على رأسه.

ورأيت رجلاً من أمتي يكلم المؤمنين ولا يكلمونه، فجاءته صلته لرحمه فقالت: يامعشر المسلمين، إنه كان وصولاً لرحمه فكلموه فكلمه المؤمنون وصافحوه وصافحهم.

ورأيت رجلاً من أمتي قد احتوشته الزبانية، فجاءه أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر فاستنقذه من أيديهم وأدخله في ملائكة الرحمة.

ورأيت رجلاً من أمتي جاثياً على ركبتيه وبينه وبين الله عز وجل حجاب، فجاءه حسن خلقه فأخذ بيده فأدخله على الله عز وجل.

ورأيت رجلاً من أمتي قد ذهبت صحيفته من قِبَل شماله، فجاءه خوفه من الله عز وجل فأخذ صحيفته فوضعها في يمينه.

ورأيت رجلاً من أمتي خف ميزانه، فجاءه أفراطه فثقلوا ميزانه.

ورأيت رجلاً من أمتي قائماً على شفير جهنم، فجاءه رجاؤه في الله عز وجل فاستنقذه من ذلك ومضى.



ورأيت رجلاً من أمتي قد أهوى في النار، فجاءته دمعته التي بكى من خشية الله عز وجل فاستنقذته من ذلك.

ورأيت رجلاً من أمتي قائماً على الصراط يرعد كما ترعد السعفة في ريح عاصف، فجاءه حسن ظنه بالله عز وجل فسكن رعدته ومضى.

ورأيت رجلاً من أمتي يزحف على الصراط ويحبو أحيانًا ويتعلق أحيانًا، فجاءته صلاته علي فأقامته على قدميه وأنقذته.

ورأيت رجلاً من أمتي انتهى إلى أبواب الجنة فغلقت الأبواب دونه، فجاءته شهادة أن لا إله إلا الله ففتحت له الأبواب وأدخلته الجنة». رواه الحافظ أبو موسى المديني في كتاب (الترغيب في الخصال المنجية، والترهيب من الخلال المردية)، وبنى كتابه عليه وجعله شرحاً له، وقال: هذا حديث حسن جداً رواه عن سعيد بن المسيب عمرو بن آزر، وعلي بن زيد بن جدعان، وهلال أبوجبلة.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يعظم شأن هذا الحديث وبلغني عنه أنه كان يقول شواهد الصحة عليه.

والمقصود منه قوله ﷺ: «ورأيت رجلاً من أمتي قد احتوشته الشياطين، فجاءه ذكر الله عز وجل فطرد الشيطان عنه».

فهذا مطابق لحديث الحارث الأشعري الذي شرحناه في هذه الرسالة. وقوله فيه: «وآمركم بذكر الله عز وجل وإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو فانطلقوا في طلبه سراعاً وانطلق حتى أتى حصناً حصيناً فأحرز نفسه فيه، فكذلك الشيطان لايحرز العباد أنفسهم



منه إلا بذكر الله عز وجل».

وفي الترمذي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال ـ يعني إذا خرج من بيته ـ بسم الله توكلت على الله لاحول ولاقوة إلا بالله. يقال له كفيت وهديت ووقيت، وتنحى عنه الشيطان، فيقول لشيطان آخر: كيف لك برجل قد هدي وكفي ووقي». رواه أبو داود والنسائي والترمذي وقال: حديث حسن.

وقد تقدم قوله ﷺ: «من قال في يوم مائة مرة: لا إله إلا الله وحده لاشريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير. كانت له حرزاً من الشيطان حتى يمسي».

وذكر سفيان عن أبي الزبير عن عبدالله بن ضمرة عن كعب قال: إذا خرج الرجل من بيته فقال: بسم الله. قال الملك: هديت، وإذا قال: توكلت على الله. قال الملك: كفيت، وإذا قال لاحول ولاقوة إلا بالله. قال الملك: حفظت، فيقول الشياطين بعضهم لبعض ارجعوا، ليس لكم عليه سبيل، كيف لكم بمن كفي وهدي وحفظ.

وقال أبو خلاد المصري: من دخل في الإسلام دخل في حصن، ومن دخل في المسجد فقد دخل في حصنين، ومن جلس في حَلْقة يذكر الله عز وجل فيها فقد دخل في ثلاثة حصون.

وقد روى الحافظ أبو موسى في كتابه من حديث أبي عمران الجوني عن النبي ﷺ قال: «إذا وضع العبد جنبه على فراشه فقال: بسم الله وقرأ فاتحة الكتاب أمن من شر الجن والإنس ومن كل شيء».



وفي صحيح البخاري عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة قال: ولاني رسول الله ﷺ زكاة رمضان أن أحتفظ بها، فأتاني آت فجعل يحثو من الطعام فأخذته، فقال: دعني فإني لا أعود. فذكر الحديث فقال له في الثالثة: أعلمك كلمات ينفعك الله بهن، إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها إلى آخرها فإنه لايزال عليك من الله حافظ ولايقربك شيطان حتى تصبح، فخلى سبيله فأصبح فأخبر النبي ﷺ بقوله فقال: «صدقك وهو كذوب».

وذكر الحافظ أبو موسى من حديث أبي الزبير عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أوى الإنسان إلى فراشه ابتدره ملك وشيطان فيقول الملك: اختم بخير، ويقول الشيطان: اختم بشر. فإذا ذكر الله تعالى حتى يغلبه ـ يعني النوم ـ طرد الملك الشيطان وبات يكلأه فإذا استيقظ ابتدره ملك وشيطان، فيقول الملك: افتح بخير، ويقول الشيطان: افتح بشر، فإن قال: الحمد لله الذي أحيا نفسي بعد موتها ولم يمتها في منامها. الحمد لله الذي يمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى.

الحمد لله الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده.

الحمد لله الذي يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، طرد الملك الشيطان وظل يكلأه».

وفي الصحيحين من حديث سالم بن أبي الجعد عن كريب عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «أما إن أحدكم إذا أتى أهله



قال: بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان مارزقتنا، فيولد بينهما ولد لايضره الشيطان أبداً».

وذكر الحافظ أبو موسى عن الحسن بن علي قال: أنا ضامن لمن قرأ هذه العشرين الآية أن يعصمه الله من كل شيطان ظالم، ومن كل شيطان مريد، ومن كل سبُع ضار، ومن كل لص عاد: آية الكرسي، وثلاث آيات من الأعراف﴿إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض﴾ وعشراً من أول الصافات، وثلاث آيات من الرحمن﴿يامعشر الجن والإنس﴾ وخاتمة سورة الحشر﴿لو أنزلنا هذا القرآن﴾.

وقال محمد بن أبان: بينما رجل يصلي في المسجد إذا هو بشيء إلى جنبه فجفل منه فقال: ليس عليك مني بأس إنما جئتك في الله تعالى، إئت عروة فسله: ما الذي يتعوذ به، يعني من إبليس الأباليس قال: قل: آمنت بالله العظيم وحده، وكفرت بالجبت والطاغوت، واعتصمت بالعروة الوثقى لا انفصام لها، والله سميع عليم، حسبي الله وكفى، سمع الله لمن دعا، ليس وراء الله منتهى.

وقال بشر بن منصور عن وهيب بن الورد قال: خرج رجل إلى الجبانة بعد ساعة من الليل، قال: فسمعت حساً ـ أو صوتاً ـ شديداً، وجيء بسرير حتى وضع، وجاء شيء حتى جلس عليه. قال: واجتمعت إليه جنوده، ثم صرخ فقال: من لي بعروة بن الزبير، فلم يجبه أحد حتى تتابع ماشاء الله عز وجل من الأصوات، فقال واحد: أنا أكفيكه. قال: فتوجه نحو المدينة وأنا ناظر، ثم أوشك الرجعة فقال: لاسبيل إلى عروة، وقال: ويلكم وجدته يقول

كلمات إذا أصبح وإذا أمسى فلا نخلص إليه معهن. قال الرجل: فلما أصبحت قلت لأهلي جهزوني، فأتيت المدينة فسألت عنه حتى دللت عليه، فإذا شيخ كبير، فقلت: شيئاً تقوله إذا أصبحت وإذا أمسيت فأبى أن يخبرني، فأخبرته بما رأيت وماسمعت، فقال: ما أدري غير أني أقول إذا أصبحت: آمنت بالله العظيم وكفرت بالجبت والطاغوت واستمسكت بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها والله سميع عليم. إذا أصبحت قلت ثلاث مرات وإذا أمسيت قلت ثلاث مرات.

وذكر أبو موسى عن مسلم البطين قال: قال جبريل للنبي ﷺ: إن عفريتاً من الجن يكيدك، فإذا أويت إلى فراشك فقل أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما ينزل من السماء وما يعرج فيها، ومن شر ماذرأ في الأرض وما يخرج منها، ومن شر فتن الليل والنهار ومن شر طوارق الليل والنهار إلا طارقاً يطرق بخير يارحمن.

وقد ثبت في الصحيح: «أن الشيطان يهرب من الأذان»، قال سهل بن أبي صالح: أرسلني أبي إلى بني حارثة ومعي غلام ـ أو صاحب ـ لنا فنادى مناد من حائط باسمه، فأشرف الذي معي على الحائط فلم ير شيئاً، فذكرت ذلك لأبي فقال: لو شعرت أنك تلقى هذا لم أرسلك، ولكن إذا سمعت صوتاً فناد بالصلاة، فإني سمعت أبا هريرة يحدث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الشيطان إذا نودي بالصلاة ولىّ وله حصاص» وفي رواية «إذا سمع النداء ولى وله ضراط حتى لايسمع التأذين» الحديث.





وذكر الحافظ أبو موسى من حديث أبي رجاء عن أبي بكر الصديق قال: قال رسول الله ﷺ: «استكثروا من لا إله إلا الله والإستغفار، فإن الشيطان قال: قد أهلكتهم بالذنوب وأهلكوني بقول لا إله إلا الله والإستغفار، فلما رأيت ذلك منهم أهلكتهم بالأهواء حتى يحسبون أنهم مهتدون فلا يستغفرون».

وذكر أيضًا عن إبراهيم بن الحكم عن أبيه عن عكرمة قال: بينما رجل مسافر إذ مر برجل نائم ورأى عنده شيطانين، فسمع المسافر أحد الشيطانين يقول لصاحبه: اذهب فأفسد على هذا النائم قلبه، فلما دنا منه رجع إلى صاحبه فقال: لقد نام على آية مالنا إليه سبيل، فذهب إلى النائم فلما دنا منه رجع قال: صدقت. فذهبا. ثم إن المسافر أيقظه وأخبره بما رأى من الشيطانين. فقال أخبرني على أي آية نمت قال على هذه الآية **﴿إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار يطلبه حثيثًا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين﴾**.

وقال أبو النضر هاشم بن القاسم: كنت أرى في داري[1] فقيل لي يا أبا النضر تحول عن جوارنا. قال: فاشتد ذلك علي فكتبت إلى الكوفة إلى ابن ادريس، والمحاربي، وأبي أسامة، فكتب إليّ المحاربي: أن بئرًا بالمدينة كان يقطع رشاؤها، فنزل بهم ركب،

---

(١) سقط شيء من الكلام. والمفهوم بالقرينة أنه كلم من كان يراهم فقيل له: يا أبا النضر. وفي نسخة مخطوطة (أرى) أرمي.



فشكـوا ذلـك إليهم، فدعوا بدلوا من ماء ثم تكلموا بهذا الكلام فصبوه في البئر فخرجت نار من البئر فطفئت على رأس البئر. قال أبو النضر: فأخـذت تورًا من ماء، ثم تكلمت فيه بهذا الكلام، ثم تتبعت به زوايا الدار فرششته، فصاحو بي ياأبا النظر أحرقتنا، نحن نتحـول عنك. وهو: بسم الله: أمسينا بالله الذي ليس منه شيء ممتنـع. وبعـزة الله التي لاتـرام ولاتضـام، وبسلطان الله المنيع نحتجب، وبـأسـمائـه الحسنى كلهـا نعوذ من الأبالسة، ومن شر شياطين الإنس والجن، ومن شر كل معلن أو مسر، ومن شر ما يخرج بالليل ويكمن بالنهـار، ويكمن بالليل ويخرج بالنهار، ومن شر ما خلق وذرأ وبرأ، ومن شر إبليس وجنوده ومن شر كل دابة أنت آخذ بنـاصيتها إن ربي على صراط مستقيم. أعوذ بما استعاذ به موسى وعيسى وإبراهيم الذي وفى من شر ما خلق وذرأ وبرأو من شر إبليس وجنـوده ومن شر ما يبغي أعـوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم ﴿**والصافات صفًا • فالزاجرات زجرًا • فالتاليات ذكرا • إن إلهكم لواحد. رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق • إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب • وحفظًا من كل شيـطان مارد • لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب • دحورا ولهم عذاب واصب • إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب**﴾.

فهذا بعض ما يتعلق بقوله ﷺ: ﴿**كذلك العبد يحرز نفسه من الشيطان بذكر الله تعالى**[1]﴾.

(١) من الوابل الصيب.



أنواع الذكر

الذكر نوعان:

١ ـ ذكر أسماء الرب تبارك وتعالى وصفاته، والثناء عليه بهما وتنزيهه وتقديسه عما لا يليق به تبارك وتعالى.

٢ ـ وذكر أمره ونهيه وأحكامه.

والأول نوعان: إنشاء ـ وخبر.

فالإنشاء: هو إنشاء الثناء عليه بها من الذاكر، نحو سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، وسبحان الله وبحمده ولا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ونحو ذلك.

وأفضل هذا النوع أجمعه للثناء وأعمه نحو: سبحان الله عدد خلقه فهذا أفضل من مجرد سبحان الله، وقولك: الحمد لله عدد ما خلق في السماء وعدد ما خلق في الأرض وعدد ما بينهما وعدد ما هو خالق، أفضل من مجرد قولك الحمد لله. وهذا في حديث جويرية أن النبي ﷺ قال لها: «لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وُزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن: سبحان الله عدد خلقه، سبحان الله رضا نفسه. سبحان الله زنة عرشه، سبحان الله مداد كلماته» رواه مسلم.

وفي الترمذي وسنن أبي داود عن سعد بن أبي وقاص أنه دخل مع رسول الله ﷺ على امرأة بين يديها نوى أو حصى تسبح بها فقال:



«أخبرك بما هو أيسر عليك من هذا وأفضل فقال: سبحان الله عدد ما خلق في السماء، وسبحان الله عدد ما خلق في الأرض، وسبحان الله عدد ما بين ذلك، وسبحان الله عدد ما هو خالق، والله أكبر مثل ذلك، والحمد لله مثل ذلك، ولا إله إلا الله مثل ذلك، ولا حول ولا قوة إلا بالله مثل ذلك».

وأما الخبر: فهو الخبر عن الرب تعالى بأحكام أسمائه وصفاته، نحو قولك: الله عز وجل يسمع أصوات عباده ويرى حركاتهم، ولا تخفى عليه خافية من أعمالهم، وهو أرحم بهم من آبائهم وأمهاتهم، وهو على كل شيء قدير، وهو أفرح بتوبة عبده من الفاقد راحلته إذا وجدها ونحو ذلك.

وأفضل هذا النوع: الثناء عليه بما أثنى به على نفسه، وبما أثنى به عليه رسول الله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تشبيه ولا تمثيل.

وهذا النوع أيضًا ثلاثة أنواع: حمد، وثناء، ومجد.

فالحمد لله: إخبار عنه بصفات كماله سبحانه وتعالى مع محبته والرضا به، فلا يكون المحب الساكت حامدًا ولا المثني بلا محبة حامدًا حتى تجتمع له المحبة والثناء فإن كرر المحامد شيئًا بعد شيء كانت ثناء، فإن كان المدح بصفات الجلال والعظمة والكبرياء والملك كان مجدًا، وقد جمع الله تعالى لعبده الأنواع الثلاثة في أول الفاتحة، فإذا قال العبد: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ قال الله: حمدني عبدي، وإذا قال: ﴿الرحمن الرحيم﴾ قال: أثنى علي عبدي، وإذا



قال: ﴿مالك يوم الدين﴾ قال: مجدني عبدي.

وأما النوع الثاني من أنواع الذكر وهو: ذكر أمره ونهيه وأحكامه فهو أيضًا نوعان:

أحدهما: ذكره بذلك إخبارًا عنه بأنه أمر بكذا ونهى عن كذا وأحب كذا وسخط كذا ورضي كذا.

والثاني: ذكره عند أمره فيبادر إليه، وعند نهيه فيهرب منه، فذكر أمره ونهيه شيء، وذكره عند أمره شيء آخر، فإذا اجتمعت هذه الأنواع للذاكر فذكره أفضل الذكر وأجله وأعظمه.

ومن ذكر الله سبحانه وتعالىٰ: ذكر آلائه وإنعامه وإحسانه وأياديه ومواقع فضله على عبيده وهذا أيضًا من أجل أنواع الذكر فهذه خمسة أنواع، وهي تكون بالقلب واللسان تارة، وذلك أفضل الذكر. وبالقلب وحده تارة وهي الدرجة الثانية. وباللسان وحده تارة وهي الثالثة. فأفضل الذكر: ما تواطأ عليه القلب واللسان وإنما كان ذكر القلب وحده أفضل من ذكر اللسان وحده، لأن ذكر القلب يثمر المعرفة ويهيج المحبة ويثير الحياء ويبعث على المخافة ويدعو إلى المراقبة ويزع عن التقصير في الطاعات والتهاون في المعاصي والسيئات. وذكر اللسان وحده لا يوجب شيئًا من هذه الآثار، وإن أثمر شيئًا منها فثمرة ضعيفة[1].

---

(١) من الوابل الصيب باختصار وتصرف يسير للايضاح.



الذكر والدعاء وأيهما أفضل

الذكر أفضل من الدعاء. الذكر: ثناء على الله عز وجل بجميل أوصافه وآلائه وأسمائه، والدعاء: سؤال العبد حاجته، فأين هذا من هذا. ولهذا جاء في الحديث: «من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين» ولهذا كان المستحب في الدعاء أن يبدأ الداعي بحمد الله تعالى والثناء عليه بين يدي حاجته، ثم يسأل حاجته. كما في حديث فضالة بن عبيد أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يدعو في صلاته لم يحمد الله تعالى ولم يصلّ على النبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «عجّل هذا» ثم دعاه فقال له أو لغيره: «إذا صلى أحدكم فليبدأ بتمجيد ربه عز وجل والثناء عليه ثم يصلي على النبي ﷺ ثم يدعو بما شاء» رواه الإمام أحمد والترمذي وقال: حديث حسن صحيح. ورواه الحاكم في صحيحه.

وهكذا دعاء ذي النون عليه السلام قال فيه النبي ﷺ: «دعوة أخي ذي النون، ما دعا بها مكروب الا فرج الله كربته: ﴿**لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين**﴾».

وفي الترمذي دعوة أخي ذي النون إذ دعا وهو في بطن الحوت ﴿**لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين**﴾ فإنه لم يدع بها مسلم في شيء قط إلا استجاب له.

وهكذا عامة الأدعية النبوية على قائلها أفضل الصلاة والسلام ومنه قوله ﷺ في دعاء الكرب: «لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله



إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض ورب العرش الكريم» ومنه حديث بريدة الأسلمي الذي رواه أهل السنن وابن حبان في صحيحه أن رسول الله ﷺ سمع رجلًا يدعو وهو يقول: اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت، الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، فقال: «والذي نفسي بيده، لقد سأل الله باسمه الأعظم الذي دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى».

وروى أبو داود والنسائي من حديث أنس أنه كان مع النبي ﷺ جالسًا ورجل يصلي ثم دعا: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت المنان بديع السمٰوات والأرض ياذا الجلال والإكرام، ياحي ياقيوم. فقال النبي ﷺ: «لقد دعا باسمه الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى» فأخبر النبي ﷺ أن الدعاء يستجاب إذا تقدمه هذا الثناء والذكر، وأنه اسم الله الأعظم. فكان ذكر الله عز وجل والثناء عليه أنجح ما طلب به العبد حوائجه وهذه فائدة أخرى من فوائد الذكر والثناء، أنه يجعل الدعاء مستجابًا. فالدعاء الذي تقدمه الذكر والثناء أفضل وأقرب إلى الإجابة من الدعاء المجرد، فإن إنضاف إلى ذلك إخبار العبد بحاله ومسكنته وافتقاره واعترافه كان أبلغ في الإجابة وأفضل، فإنه يكون قد توسل إلى المدعو بصفات كماله وإحسانه وفضله وعرّض بل صرح بشدة حاجته وضرورته وفقره ومسكنته، فهذا المقتضى منه، وأوصاف المسئول مقتضى من الله، فاجتمع المقتضى من السائل والمقتضى



من المسئول في الدعاء وكان أبلغ وألطف موقعًا وأتم معرفة وعبودية.

وتأمل قول موسى ﷺ في دعائه: (رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير).

وقول ذي النون ﷺ في دعائه ﴿لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾ وقول أبينا آدم ﷺ: ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾.

وفي الصحيحين أن أبا بكر الصديق قال يا رسول الله علمني دعاء أدعو به في صلاتي فقال: «قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا وإنه لايغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم».

فجمع في هذا الدعاء الشريف العظيم القدر بين الاعتراف بحاله والتوسل إلى ربه عز وجل بفضله وجوده وأنه المنفرد بغفران الذنوب، ثم سأل حاجته بعد التوسل بالأمرين معًا. فهكذا أدب الدعاء وآداب العبودية[1].

التفاضل بين القراءة والذكر والدعاء

قراءة القرآن أفضل من الذكر، والذكر أفضل من الدعاء، هذا من حيث النظر لكل منهما مجردًا، وقد يعرض للمفضول ما يجعله أولى من الفاضل بل يعينه فلا يجوز أن يعدل عنه إلى الفاضل، وهذا

(١) من الوابل الصيب باختصار.

كالتسبيح في الركوع والسجود فإنه أفضل من قراءة القرآن فيهما، بل القراءة فيهما منهي عنها نهي تحريم أو كراهة.

وكذلك التسميع، والتحميد في محلهما أفضل من القراءة.

وكذلك التشهد، وكذلك «رب اغفر لي وارحمني واهدني وعافني وارزقني» بين السجدتين أفضل من القراءة، وكذلك الذكر عقيب السلام من الصلاة - ذكر التهليل والتسبيح والتكبير والتحميد - أفضل من الإشتغال عنه بالقراءة.

وكذلك إجابة المؤذن والقول كما يقول أفضل من القراءة، وإن كان فضل القرآن على كل كلام كفضل الله تعالى على خلقه، لكن لكل مقام مقال، متى فات مقاله فيه وعدل عنه إلى غيره اختلت الحكمة وفقدت المصلحة المطلوبة منه. وهكذا الأذكار المقيدة بحال مخصوصة أفضل من القراءة المطلقة، والقراءة المطلقة أفضل من الأذكار المطلقة، اللهم إلا أن يعرض للعبد ما يجعل الذكر أو الدعاء أنفع له من قراءة القرآن. مثل أن يتفكر في ذنوبه فيحدث ذلك له توبه من استغفار، أو يعرض له ما يخاف أذاه من شياطين الإنس والجن فيعدل إلى الأذكار والدعوات التي تحصنه وتحوطه، وكذلك أيضًا قد يحدث للعبد حاجة ضرورية إذا اشتغل عن سؤالها بقراءة أو ذكر لم يحضر قلبه فيهما، وإذا أقبل على سؤالها والدعاء إليها اجتمع قلبه كله على الله تعالىٰ وأحدث له تضرعًا وخشوعًا وابتهالاً، فهذا قد يكون اشتغاله بالدعاء والحالة هذه أنفع، وإن كان كل من القراءة والذكر أفضل وأعظم أجرًا. وهذا باب نافع يحتاج إلى فقه





نفس، وفرقان بين فضيلة الشيء في نفسه وبين فضيلته العارضة، فيعطى كل ذي حق حقه ويوضع كل شيء موضعه فللعين موضع وللرجل موضع وللماء موضع، وللحم موضع وحفظ المراتب هو من تمام الحكمة التي هي نظام الأمر والنهي. والله تعالىٰ الموفق[1].

مجالس الذكر

قال في المفهم: مجلس ذكر، يعني مجلس علم وتذكير وهي المجالس التي يذكر فيها كلام الله وسنة رسوله ﷺ وأخبار السلف الصالحين وكلام الأئمة الزهاد المتقدمين المبرأة عن التصنع والبدع والمنزهة عن المقاصد الرديئة والطمع.

وقال النووي في الأذكار: اعلم أن فضيلة الذكر غير منحصرة في التسبيح والتهليل والتحميد والتكبير ونحوها، بل كل عامل لله تعالى بطاعة فهو ذاكر لله تعالى، كذا قال سعيد بن جبير رضي الله عنه وغيره من العلماء.

وقال عطاء رحمه الله: مجالس الذكر هي مجالس الحلال والحرام كيف تشتري وتبيع وتصلي وتصوم وتنكح وتطلق وتحج وأشباه هذه. انتهى.

---

(١) من الوابل الصيب.





عظم حق الله تعالى وتقصير العباد في ذلك

عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله لو عذب أهل سمـواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم كانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم» رواه أبو داود والحاكم في مستدركه.

فأهل السنة قابلوه بالتصديق وتلقوه بالقبول، وعلموا من عظمة الله وجـلاله وقدر نعمه على خلقه وعدم قيام الخلق بحقوق نعمه عليهم، إما عجزا وإما جهلا وإما تفريطًا وإما إضاعة وإما تقصيراً في المقـدور من الشكـر ولو من بعض الوجوه، فإن حقه على أهل السموات والأرض أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر. وتكون قوة القلب كلها، وقوة الإنابة والتوكل، والخشية والمراقبة والخوف والرجاء، جميعها متوجهة إليه ومتعلقة به، بحيث يكون القلب عاكفًا على محبته وتألهه، بل على إفراده بذلك، واللسان محبـوسًـا على ذكـره، والجوارح وقفًا على طاعته. قد استسلمت له القلوب أتم استسـلام، وذلت له أكمل ذل، وخضعت له أعظم خضوع، وقد فنيت بمراده ومحابه عن مرادها ومحابها، فلم يكن لها مراد محبوب غير مراده ومحبوبه ألبتة.

ولا ريب أن هذا مقدور في الجملة ولكن النفوس تشح به وهي في الشح على مراتب لا يحصيها إلا الله تعالىٰ، وأكثر المطيعين يشح به من وجه وإن أتى به من وجه ولعل ما لا تسمح به نفسه أكثر مما تسمح به مع فضل زهده وعبادته وعلمه وورعه.



فأين الـذي لا يقع منه إرادة تزاحم إرادة الله وما يحبه منه فلا يعتريه غفلة واسترسال مع حكم الطبيعة والميل إلى دواعيها، وتقصير في حق الله تعالى معرفة ومراعاة وقيامًا به.

ومن الذي ينظر في كل نعمة من النعم دقيقها وجليلها إلى أنها منـة ربـه وفضله وإحسانه فيذكره بها ويحبه عليها ويشكره عليها، ويستعين بها على طاعته، ويعترف مع ذلك بقصوره وتقصيره، وأن حق الله عليه أعظم مما أتى به.

ومن الذي يوفي حقًا واحدًا من الحقوق وعبودية واحدة حقها من الإجلال والتعظيم والنصح لله تعالى فيها، وبذل الجهود في وقوعها على ما ينبغي لوجهه الكريم مما يدخل على قدرة العبد ظاهراً وباطنًا، ومع هذا فيراهـا محض منـة الله عليه وفضله عليه، وإن ربـه هو المستحق عليها الحمد، وأنه لا وسيلة توسل بها إلى ربه حتى نالها، وأنه يقابلها بما تستحق أن تقابل به من كمال الذل والخضوع، والمحبة والبراءة من حوله وقوته.

ومن الذي لم يصدر منه خلاف ما خلق له ولو في بعض الأوقات من حركة نفسه وجوارحه أو يترك بعض ما خلق له، أو يؤثر بعض حقوقه ومراده على مراد الله تعالى ومرضاته ويزاحمه به.

ومن المعلوم عقلاً وشرعًا وفطرة أن الله تعالى يستحق على عبده غاية التعظيم والإجلال والعبودية التي تصل إليها قدرته، وكل ما ينافي التعظيم والإجلال يستحق عليه من العقوبة ما يناسبه.



والشرك، والمعصية، والغفلة، واتباع الهوى، وترك بذل الجهد، والنصيحة في القيام بحق الله باطنًا وظاهرًا، وتعلق القلب بغيره والتفاته إلى ماسواه، ومنازعة ما هو من خصائص ربوبيته، ورؤية النفس والمشاركة في الحول والقوة، ورؤية الملكة في شيء من الأشياء فلا ينسلخ منها بالكلية. كل ذلك ينافي التعظيم والإجلال. فلو وضع سبحانه العدل على العباد لعذبهم بعدله فيهم ولم يكن ظالمًا.

وغاية ما يقدر توبة العبد من ذلك واعترافه به. وقبول التوبة محض فضله وإحسانه، وإلا فلو عذب عبده على جنايته لم يكن ظالمًا له ولو قدر أنه تاب منها، لكن أوجب على نفسه بمقتضى فضله ورحمته أن لا يعذب من تاب من ذنبه واعترف به رحمة وإحسانًا. وقد كتب سبحانه على نفسه الرحمة فلا يسع الخلائق إلا رحمته وعفوه، ولا يبلغ عمل أحد منهم أن ينجو به من النار أو يدخل به الجنة كما قال أطوع الخلق لربه وأفضلهم عملاً وأشدهم تعظيمًا له: «لن ينجي أحدًا منكم عمله» قالوا: ولا أنت يارسول الله. قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل».

وكان ﷺ أكمل الخلق استغفارًا، وكانوا يعدون عليه في المجلس الواحد مائة مرة رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الرحيم.

وكان يقول: «يا أيها الناس توبوا إلى ربكم، فوالله إني لأتوب إلى الله» وفي لفظ «إني لأستغفر الله في اليوم والليلة أكثر من سبعين مرة».

وكان إذا سلم من صلاته استغفر ثلاثًا.

وكان يقول بين السجدتين: «رب اغفر لي» وكان يقول في سجوده: «اللهم اغفر لي خطئي وجهلي وإسرافي في أمري وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي جدي وهزلي وخطئي وعمدي وكل ذلك عندي، اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله إلا أنت».

وكان يستغفر في استفتاح الصلاة وفي خاتمة الصلاة، وعلم أفضل الأمة أن يستغفر في صلاته ويعترف على نفسه بظلم كثير.

وقد قال الله تعالى: ﴿**واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات**﴾ وقال ﴿**ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر**﴾.

فأهل السموٰات والأرض محتاجون إلى مغفرته كما هم محتاجون إلى رحمته.

ومن ظن أنه يستغني عن مغفرة الله فهو كمن ظن أنه يستغني عن رحمته. فلا يستغني أحد عن مغفرته ورحمته كما لا يستغني عن نعمته ومنته. فلو أمسك عنهم فضله ومنته ورحمته لهلكوا وعذبوا ولم يكن ظالمًا، وحينئذ فتصيبهم النقمات بإمساك فضله وكل نقمة منه عدل.

ومما يوضح هذا أن الظلم الذي تقدس عنه أن يعاقبهم بما لم يعملوا ويمنعهم ثواب ما يستحقون ثوابه، وهو سبحانه لا يعذب إلا بسبب كما إذا أراد تعذيب الأطفال والمجانين، ومن لم تقم عليه

حجته في الدنيا امتحنهم في الآخرة، فعذب من عصاه منهم، بأسباب أظهرها بالإمتحان كما أظهر[1] امتحان إبليس سبب عقوبته. فلو أراد تعذيب أهل سمواته وأرضه كلهم لامتحنهم امتحانًا يظهر أسباب تعذيبهم فيكون عدلاً منه، فإنه يعلم من العبد مالا يعلمه العبد من نفسه. قال الحسن البصري: لقد دخلوا النار وإن حمده لفي قلوبهم ما وجدوا عليه سبيلاً[2].

عجز العباد عن القيام بشكر نعم الله على الكمال

فإن كشف علمك عن هذا ولم يتسع له عقلك، فاذكر النعم وما عليها من الحقوق، ووازن بين شكرها وكفرها، فحينئذ تعلم أنه لو عذب أهل السموٰات والأرض لعذبهم وهو غير ظالم لهم. قال أنس بن مالك: ينشر للعبد يوم القيامة ثلاثة دواوين: ديوان فيه ذنوبه، وديوان فيه النعم، وديوان فيه العمل الصالح. فيأمر الله تعالى أصغر نعمة من نعمه فتقوم فتستوعب عمله فيه ثم تقول: أي ربي وعزتك وجلالك ما استوعبت ثمني وقد بقيت الذنوب والنعم، فإذا أراد الله بعبده خيرًا قال: ابن آدم ضعفت حسناتك وتجاوزت عن سيئاتك ووهبت لك نعمي فيما بيني وبينك. ومما يوضح الأمر أن من حق الله على عبده أن يرضى به ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ رسولاً. وهذا الرضى يقتضي رضاه بربوبيته له في كل ما يقضيه ويقدره عليه في عطائه له ومنعه، وفي قبضه به وبسطه، ورضاه بالإسلام دينًا يوجب عليه رضاه به وعنه في كل ما يأمره وينهاه عنه ويحبه منه ويكرهه

---

(١) لعل العبارة (كما اظهر بامتحان ابليس سبب عقوبته).

(٢) من مختصر الصواعق باختصار.

له، فلا يكون في صدره من ذلك حرج بوجه ما. ورضاه بمحمد ﷺ رسولاً يوجب أن يرضى بحكمه له وعليه وأن يسلم لذلك وينقاد له ولا يُقَدِّمَ عليه غيره. وهذا يوجب أن يكون حبه كله لله، وبغضه كله لله، وعطاؤه لله ومنعه لله، وفعله لله وتركه لله، وإذا قام بذلك كانت نعم الله عليه أكثر من عمله، بل فعله ذلك من أعظم نعم الله عليه، حيث وفقه له ويسره له وأعانه عليه، وجعله من أهله وخصه به، فهو يستوجب شكرًا آخر عليه، فلا سبيل له إلى القيام بما يجب لله تعالى عليه من الشكر أبدًا، فنعم الله تطالبه بالشكر، وأعماله لا يقبلها، وذنوبه وغفلته وتقصيره قد يستنفد عمله، فديوان النعم وديوان الذنوب يستنفدان طاعاته كلها، هذا وأعمال العبد مستحقة عليه بمقتضى كونه عبدًا مملوكًا مستعملاً فيما يأمره به سيده، فنفسه مملوكة وأعماله مستحقة عليه بموجب العبودية فلا يستحق ثوابًا ولا جزاءً، فلو أمسك الثواب والجزاء الذي يتنعم به لم يكن ظالمًا، فإنه يكون قد فعل ما وجب عليه بحق كونه عبدًا، ومن لم يحكم هذا الوضع فإنه عند الذنوب وعقوباتها يصدر منه من الأقوال ما يكون فيها أو في بعضها خصمًا لله متظلمًا منه شاكيًا له، وقد وقع في هذا من شاء الله من الناس ولو حركت النفوس لرأيت العجب.

ومما يوضح ذلك: أنه سبحانه عادل، لو عم أهل السموٰات والأرض بالعذاب لكان عادلاً، فهو إنما ينزل العذاب بسبب من يستحقه منهم ثم يعم العذاب من لايستحقه، كما أهلك سبحانه الأمم المكذبين بعذاب الاستئصال، وأصاب العذاب الأطفال والبهائم ومن لم يذنب، وكذلك إذا عصاه أهل الأرض أمسك عنهم

قطر السماء، فيصيب ذلك العذاب البهائم والوحوش في الفلوات، فتموت الحبارى في وكرها هزلاً بخطايا بني آدم، ويموت الضب في جحره جوعًا، وقد أغرق الله أهل الأرض كلهم بخطايا قوم نوح، وفيهم الأطفال والبهائم، ولم يكن ذلك ظلمًا منه سبحانه، فالعقوبة الإلهية التي اشتركت الناس في أسبابها تأتي عامة، وقد كسر الصحابة رضي الله عنهم في يوم أحد بذنوب أولئك الذين عصوا رسول الله ﷺ وأخلوا مراكزهم، وانهزموا يوم حنين لما حصل لبعضهم من الإعجاب بكثرتهم فعمت عقوبة ذلك الإعجاب، وهذا عين العدل والحكمة لما في ذلك من المصالح التي لا يعلمها إلا الله تعالى.

وغاية ما يقال: فهلا خصت العقوبة صاحب الجريمة فيقال: العقوبة العامة التي تبقى آية وعبرة وموعظة، لو وقعت خاصة لارتفعت الحكمة المقصودة منها، وفاتت العبرة ولم يظهر للناس أنها بذلك السبيل، بل لعل قائلاً يقول: قدرًا اتفق. وإذا أصاب العذاب من لا يستحقه، فمن يثاب في الآخرة معجل له الراحة في الدنيا بالموت الذي لابد منه، ويتداخل الثواب في الآخرة، ومن لا يثاب كالبهائم التي لابد من موتها فإنها تتعجل الراحة وما يصيبها[1] من ألم الجوع والعطش، فهو من لوازم العدل والحكمة مثل الذي يصيبها من ألم الحر والبرد والحبس في بيوتها التي مصلحتها أرجح من مفسدة ماينالها، وهكذا مصلحة هذه العقوبة العامة وجعلها عبرة للأمم أرجح من مفسدة تألم تلك الحيوانات[2]

(١) لعل العبارة صوابها (مما يصيبها) فليحرر.

(٢) من مختصر الصواعق.

ما يستقيم به السير إلى الله والدار الآخرة

طالب الله والدار الآخرة لا يستقيم له سيره وطلبه إلا بحبسين: حبس قلبه في طلبه ومطلوبه، وحبسه عن الإلتفات إلى غيره، وحبس لسانه عما لا يفيد، وحبسه على ذكر الله وما يزيد في إيمانه ومعرفته، وحبس جوارحه عن المعاصي والشهوات، وحبسها على الواجبات والمندوبات. فلا يفارق الحبس حتى يلقى ربه فيخلصه من السجن إلى أوسع فضاء وأطيبه ومتى لم يصبر على هذين الحبسين[1] وفر منهما إلى فضاء الشهوات، أعقبه ذلك الحبس الفظيع عند خروجه من الدنيا. فكل خارج من الدنيا إما متخلص من الحبس، وإما ذاهب إلى الحبس وبالله التوفيق[2].

أثر الشهادة عند الموت

لشهادة أن لا إله إلا الله عند الموت تأثير عظيم في تكفير السيئات وإحباطها، لأنها شهادة من عبد موقن بها عارف بمضمونها، قد ماتت منه الشهوات ولانت نفسه المتمردة، وانقادت بعد إبائها واستعصائها، وأقبلت بعد إعراضها، وذلت بعد عزها، وخرج منها حرصها على الدنيا وفضولها واستخذت بين يدى ربها وفاطرها ومولاها الحق أذل ما كانت له، وأرجى ما كانت لعفوه ومغفرته ورحمته، وتجرد منها التوحيد بانقطاع أسباب الشرك وتحقُّق بطلانه، فزالت منها تلك

---

(١) بكل واحد من القلب واللسان والجوارح حبسان فتنبه.

(٢) من الفوائد لابن القيم.

المنازعات التي كانت مشغولة بها، واجتمع همها على من أيقنت بالقدوم عليه، والمصير إليه، فوجه العبد وجهه بكليته إليه وأقبل بقلبه وروحه وهمه عليه. فاستسلم وحده ظاهرًا وباطنًا، واستوى سره وعلانيته، فقال: لا إله إلا الله مخلصًا من قلبه وقد تخلص قلبه من التعلق بغيره، والإلتفات إلى ما سواه، وقد خرجت الدنيا كلها من قلبه. وشارف القدوم على ربه، وخمدت نيران شهوته، وامتلأ قلبه من الآخرة فصارت نصب عينيه، وصارت الدنيا وراء ظهره، فكانت تلك الشهادة الخالصة خاتمة عمله؛ فطهرته من ذنوبه، وأدخلته على ربه لأنه لقي ربه بشهادة صادقة خالصة، وافق ظاهرها باطنها، وسرها علانيتها، فلو حصلت له الشهادة على هذا الوجه في أيام الصحة لاستوحش من الدنيا وأهلها؛ وفر إلى الله من الناس وأنس به دون من سواه، لكنه شهد بها بقلب مشحون بالشهوات وحب الحياة وأسبابها، ونفس مملوءة بطلب الحظوظ والإلتفات إلى غير الله، فلو تجردت كتجردها عند الموت، لكان لها نبأ آخر وعيش آخر سوى عيشها البهيمي، والله المستعان[1].

ماتتم به الرغبة في الآخرة والزهد في الدنيا

لا تتم الرغبة في الآخرة إلا بالزهد في الدنيا، ولا يستقيم الزهد في الدنيا إلا بعد نظرين صحيحين:

نظر في الدنيا وسرعة زوالها وفنائها واضمحلالها ونقصها

---

(١) من الفوائد.



وخستها، وألم المزاحمة عليها والحرص عليها، وما في ذلك من الغصص والنغص والأنكاد وآخر ذلك الزوال والإنقطاع، مع ما يعقب من الحسرة والأسف فطالبها لا ينفك من هم قبل حصولها وهم في حال الظفر بها، وغم وحزن بعد فواتها. فهذا أحد النظرين.

النظر الثاني: النظر في الآخرة وإقبالها ومجيئها ولا بد ودوامها وبقائها، وشرف ما فيها من الخيرات والمسرات، والتفاوت الذي بينه وبين ما ههنا فهي كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿والآخرة خير وأبقى﴾ فهي خيرات كاملة دائمة وهذه خيالات ناقصة منقطعة مضمحلة، فإذا تم له هذان النظران آثر ما يقتضي العقل إيثاره، وزهد فيما يقتضي الزهد فيه، فكل أحد مطبوع على أن لايترك النفع العاجل واللذة الحاضرة إلى النفع الآجل، واللذة الغائبة المنتظرة، إلا إذا تبين له فضل الآجل على العاجل وقويت رغبته في الأعلى الأفضل، فإذا آثر الفاني الناقص كان ذلك لعدم تبين الفضل له، وإما لعدم رغبته في الأفضل. وكل واحد من الأمرين يدل على ضعف الإيمان وضعف العقل والبصيرة، فإن الراغب في الدنيا الحريص عليها المؤثر لها، إما أن يصدق بأن ما هناك أشرف وأفضل وأبقى، وإما أن لا يصدق، فإن لم يصدق بذلك كان عادمًا للإيمان رأسًا، وإن صدق بذلك ولم يؤثره، كان فاسد العقل سيء الإختيار لنفسه. وهذا تقسيم حاصرٌ ضروري لا ينفك العبد من أحد القسمين منه، فإيثار الدنيا على الآخرة إما من فساد الإيمان، وإما من فساد العقل وما أكثر ما يكون منهما ولهذا نبذها رسول الله ﷺ وراء ظهره هو وأصحابه،

وصرفوا عنها قلوبهم واطرحوها. ولم يألفوها وهجروها ولم يميلوا إليها، وعدوها سجنًا لا جنة، فزهدوا فيها حقيقة الزهد، ولو أرادوها لنالوا منها كل محبوب ولوصلوا منها إلى كل مرغوب، فقد عرضت عليه مفاتيح كنوزها فردها، وفاضت على أصحابه فآثروا بها، ولم يبيعوا حظهم من الآخرة بها، وعلموا أنها معبر وممر لا دار مقام ومستقر، وأنها دار عبور لا دار سرور، وأنها سحابة صيف تنقشع عن قليل، وخيال طيف ما استتم الزيارة حتى أذن بالرحيل.

قال النبي ﷺ: «مالي وللدنيا إنما أنا كراكب قال في ظل شجرة ثم راح وتركها» وقال: «ما الدنيا في الآخرة إلا كما يدخل أحدكم اصبعه في اليم فلينظر بم ترجع».

وقال خالقها سبحانه ﴿**إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهارًا فجعلناها حصيدًا كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصِّل الآيات لقوم يتفكرون**﴾. والله يدعوا إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

فأخبر عن خسة الدنيا وزهد فيها، وأخبر عن دار السلام ودعا إليها.

وقال تعالىٰ: ﴿**واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرًا المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابًا وخير أملاً**﴾.

وقال تعالى: ﴿اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطامًا وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾.

وقال تعالى: ﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب قل أؤنبئكم بخير من ذلك للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد﴾.

وقال تعالى: ﴿وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع﴾.

وقد توعد الله أعظم الوعيد لمن رضي بالحياة الدنيا واطمأن بها، وغفل عن آياته ولم يرج لقاءه فقال: ﴿إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون. أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون﴾.

وعير سبحانه من رضي بالدنيا من المؤمنين فقال: ﴿يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل﴾.

وعلى قدر رغبة العبد في الدنيا ورضاه بها يكون تثاقله عن طاعة الله وطلب الآخرة، ويكفي في الزهد في الدنيا قوله تعالى ﴿أفرأيت

إن متعناهم سنين. ثم جاءهم ما كانوا يوعدون . ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون﴾ .

وقوله: ﴿ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون﴾ .

وقوله تعالى: ﴿يسألونك عن الساعة أيان مرساها. فيم أنت من ذكراها. إلى ربك منتهاها. إنما أنت منذر من يخشاها. كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها﴾ .

وقوله: ﴿يوم تقوم الساعة يقسم المجرمون مالبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون﴾ .

وقوله: ﴿قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين. قالوا لبثنا يومًا أو بعض يوم فسأل العادين. قال إن لبثتم إلا قليلاً لو أنكم كنتم تعلمون﴾ .

وقوله: ﴿يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقًا. يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشرًا. نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يومًا﴾ والله المستعان وعليه التكلان[1] .

أساس كل خير ومفتاحه

أساس كل خير: أن تعلم أن ماشاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فتتيقن حينئذ أن الحسنات من نعمه فتشكره عليها وتتضرع إليه أن لايقطعها عنك، وأن السيئات من خذلانه وعقوبته فتبتهل إليه أن يحول بينك وبينها ولا يكلك في فعل الحسنات وترك السيئات إلى نفسك.

---

(١) من الفوائد.



وقد أجمع العارفون على أن كل خير فأصله بتوفيق الله للعبد، وكل شر فأصله خذلانه لعبده، وأجمعوا على أن التوفيق أن لايكلك الله إلى نفسك، وأن الخذلان هو أن يخلي بينك وبين نفسك فإذا كان كل خير فأصله التوفيق وهو بيد الله لابيد العبد فمفتاحه الدعاء والإفتقار وصدق اللجأ والرغبة والرهبة إليه فمتى أعطي العبد هذا المفتاح فقد أراد أن يفتح له، ومتى أضله عن المفتاح بقي باب الخير مرتجًا دونه.

قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: إني لا أحمل هم الإجابة ولكن هم الدعاء فإذا ألهمت الدعاء فإن الإجابة معه وعلى قدر نية العبد وهمته ومراده ورغبته في ذلك يكون توفيقه سبحانه وإعانته، فالمعونة من الله تنزل على العباد على قدر هممهم وثباتهم ورغبتهم ورهبتهم، والخذلان ينزل عليهم على حسب ذلك، فالله سبحانه أحكم الحاكمين وأعلم العالمين يضع التوفيق في مواضعه اللائقة به، والخذلان في مواضعه اللائقة به وهو العليم الحكيم.

وما أتي من أتي إلا من قبل إضاعة الشكر وإهمال الإفتقار والدعاء، ولا ظفر من ظفر بمشيئة الله وعونه إلا بقيامه بالشكر وصدق الإفتقار والدعاء، وملاك ذلك الصبر فإنه من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد فإذا قطع الرأس فلا بقاء للجسد[1].

---

(١) من الفوائد.



أعظم عقوبة وأسبابها

ما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب والبعد عن الله، خلقت النار لإذابة القلوب القاسية. أبعد القلوب من الله القلب القاسي، إذا قسى القلب قحطت العين.

قسوة القلب من أربعة أشياء إذا جاوزت قدر الحاجة: الأكل، والنوم، والكلام، والمخالطة، كما أن البدن إذا مرض لم ينفع فيه الطعام والشراب فكذلك القلب إذا مرض بالشهوات لم تنجع فيه المواعظ.

من أراد صفاء قلبه فليؤثر الله على شهوته.

القلوب المتعلقة بالشهوات محجوبة عن الله بقدر تعلقها بها. شغلوا قلوبهم بالدنيا، ولو شغلوها بالله والدار الآخرة لجالت في معاني كلامه وآياته المشهودة ورجعت إلى أصحابها بغرائب الحكم وطرف الفوائد. إذا غذي القلب بالتذكر، وسقي بالتفكر، ونقي من الدغل، رأى العجائب وألهم الحكمة، خراب القلب من الأمن والغفلة، وعمارته من الخشية والذكر. إذا زهدت القلوب في موائد الدنيا قعدت على موائد الآخرة بين أهل تلك الدعوة، وإذا رضيت بموائد الدنيا فاتتها تلك الموائد، والقلب يمرض كما يمرض البدن وشفاؤه في التوبة والحمية، ويصدأ كما تصدأ المرآة وجلاؤه بالذكر، ويعرى كما يعرى الجسم وزينته التقوى، ويجوع ويظمأ كما يجوع البدن، وطعامه وشرابه المعرفة والمحبة والتوكل والإنابة والخدمة.



للقلب ستة مواطن يجول فيها لا سابع لها، ثلاثة سافلة، وثلاثة عالية. فالسافلة: دنيا تتزين له، ونفس تحدثه، وعدو يوسوس له، فهذه مواطن الأرواح السافلة التي لاتزال تجول فيها. والثلاثة العالية: علم يتبين له، وعقل يرشده، وإله يعبده. والقلوب جوالة في هذه المواطن[1].

أفضل ما اكتسبته النفوس وحصلته القلوب

أفضل ما اكتسبته النفوس، وحصلته القلوب، ونال به العبد الرفعة في الدنيا والآخرة، وهو العلم والإيمان ولهذا قرن بينهما سبحانه في قوله: ﴿**وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث**﴾، وقوله: ﴿**يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات**﴾.

وهؤلاء هم خلاصة الوجود ولبه والمؤهلون للمراتب العالية، ولكن أكثر الناس غالطون في حقيقة مسمى العلم والإيمان، اللذين بهما السعادة والرفعة، وفي حقيقتهما حتى أن كل طائفة تظن أن مامعها من العلم والإيمان هو هذا الذي به تنال السعادة، وليس كذلك بل أكثرهم ليس معهم إيمان ينجي ولا علم يرفع، بل قد سدوا على نفوسهم طرق العلم والإيمان اللذين جاء بهما الرسول ﷺ ودعا إليهما الأمة وكان عليهما هو وأصحابه من بعده وتابعوهم على منهاجهم وآثارهم.

(١) من الفوائد باختصار.



والعلم: هو ما جاء به الرسول ﷺ عن الله قال تعالى: ﴿فمن حاجك فيه من بعدما جاءك من العلم﴾، وقال: ﴿ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم﴾.

وقال في القرآن: ﴿أنزله بعلمه﴾ أي وفيه علمه.

ولقد أحسن القائل:

العلم قال الله قال رسوله   قال الصحابة ليس بالتمويه
ما العلم نصبك للخلاف سفاهة   بين الرسول وبين رأي فقيه
كلا ولا جحد الصفات ونفيها   حذرا من التمثيل والتشبيه

وأما الإيمان: فأكثر الناس أو كلهم يدعونه ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾. وأكثر المؤمنين إنما عندهم إيمان مجمل.

وأما الإيمان المفصل بما جاء به الرسول ﷺ معرفة وعلما، وإقرارًا ومحبة ومعرفة بضده وكراهيته وبغضه، فهذا إيمان خواص الأمة، وخاصة الرسول، وهو إيمان الصديق وحزبه.

والإيمان: حقيقة مركبة من معرفة ما جاء به الرسول ﷺ علمًا، والتصديق به عقدًا، والإقرار به نطقًا، والانقياد له محبة وخضوعًا، والعمل به باطنًا وظاهرًا، وتنفيذه، والدعوة إليه بحسب الإمكان، وكماله في الحب في الله، والبغض في الله، والعطاء لله والمنع لله، وأن يكون الله وحده إلهه ومعبوده،

والطريق إليه: تجريد متابعة رسوله ﷺ ظاهرًا وباطنًا، وتغميض عين القلب عن الإلتفات إلى سوى الله ورسوله، وبالله التوفيق[1].

(١) انتهى من الفوائد باختصار.

ظاهر الإيمان وباطنه

وقال أيضًا: الإيمان له ظاهر وباطن، وظاهره: قول اللسان وعمل الجوارح.

وباطنه: تصديق القلب وانقياده ومحبته، فلا ينفع ظاهر لا باطن له وأن حقن به الدماء وعصم به المال والذرية، ولا يجزىء باطن لا ظاهر له إلا إذا تعذر بعجز أو إكراه وخوف هلاك، فتخلف العمل ظاهرًا مع عدم المانع، دليل على فساد الباطن وخلوه من الإيمان، ونقصه دليل نقصه، وقوته دليل قوته. فالإيمان قلب الإسلام ولبه. واليقين قلب الإيمان ولبه، وكل علم وعمل لا يزيد الإيمان واليقين قوة فمدخول.

وكل إيمان لا يبعث على العمل فمدخول[1].

نصيحة قيمة

هلم إلى الدخول على الله ومجاورته في دار السلام بلا نصب ولا تعب ولا عناء، بل من أقرب الطرق وأسهلها، وذلك أنك في وقت بين وقتين وهو في الحقيقة عمرك، وهو وقتك الحاضر بين ما مضى وما يستقبل. فالذي مضى تصلحه بالتوبة والندم والإستغفار؛ وذلك شيء لا تعب عليك فيه ولا نصب ولا معاناة عمل شاق، إنما هو عمل قلب، وتمتنع فيما يستقبل من الذنوب، وامتناعك ترك

(١) من الفوائد.

وراحة ليس هو عملاً بالجوارح يشق عليك معاناته، وإنما هو عزم ونية جازمة تريح بدنك وقلبك وسرك، فما مضى تصلحه بالتوبة، وما يستقبل تصلحه بالإمتناع والعزم والنية، وليس للجوارح في هذين نصب ولا تعب، ولكن الشأن في عمرك، وهو وقتك الذي بين الوقتين، فإن أضعته أضعت سعادتك ونجاتك، وإن حفظته مع إصلاح الوقتين اللذين قبله وبعده بما ذكر نجوت وفزت بالراحة واللذة والنعيم. وحفظه أشق من إصلاح ما قبله وما بعده، فإن حفظه أن تلزم نفسك بما هو أولى بها وأنفع لها وأعظم تحصيلاً لسعادتها، وفي هذا تفاوت الناس أعظم تفاوت فهي والله أيامك الخالية التي تجمع فيها الزاد لمعادك إما إلى الجنة وإما إلى النار، فإن اتخذت إليها سبيلاً إلى ربك بلغت السعادة العظمى والفوز الأكبر في هذه المدة اليسيرة. التي لا نسبة لها إلى الأبد، وإن آثرت الشهوات والراحات، واللهو واللعب، انقضت عنك بسرعة. وأعقبتك الألم العظيم الدائم الذي مقاساته ومعاناته أشق وأصعب وأدوم من معاناة الصبر عن محارم الله، والصبر على طاعته ومخالفته الهوى لأجله[1].

علامات السعادة، وعلامات الشقاوة

من علامات السعادة والفلاح: أن العبد كلما زيد في علمه، زيد في تواضعه ورحمته، وكلما زيد في عمله، زيد في خوفه وحذره، وكلما زيد في عمره، نقص من حرصه، وكلما زيد في ماله، زيد في سخائه

---

(١) من الفوائد.



وبذله، وكلما زيد في قدره وجاهه، زيد في قربه من الناس وقضاء حوائجهم والتواضع لهم.

وعلامات الشقاوة: أنه كلما زيد في علمه، زيد في كبره وتيهه، وكلما زيد في عمله، زيد في فخره واحتقاره للناس وحسن ظنه بنفسه، وكلما زيد في عمره، زيد في حرصه، وكلما زيد في ماله، زيد في بخله وإمساكه، وكلما زيد في قدره وجاهه، زيد في كبره وتيهه. وهذه الأمور ابتلاء من الله وامتحان يبتلي بها عباده. فيسعد بها أقوام ويشقى بها أقوام.

وكذلك الكرامات امتحان وابتلاء: كالملك، والسلطان، والمال، قال تعالى عن نبيه سليمان لما رأى عرش بلقيس عنده: ﴿**هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر**﴾.

فالنعم ابتلاء من الله وامتحان يظهر بها شكر الشكور وكفر الكفور كما أن المحن بلوى منه سبحانه، فهو يبتلي بالنعم كما يبتلي بالمصائب قال تعالى: ﴿**فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن• وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن• كلا**﴾ أي ليس كل من وسعت عليه وأكرمته ونعمته، يكون ذلك إكرامًا مني له، ولا كل من ضيقت عليه رزقه وابتليته، يكون ذلك إهانة له مني[1].

(١) من الفوائد.



أركان الكفـر

أركان الكفر أربعة: الكبر، والحسد، والغضب، والشهوة.

فالكبر: يمنعه الإنقياد، والحسد: يمنعه قبول النصيحة وبذلها، والغضب: يمنعه العدل، والشهوة: تمنعه التفرغ للعبادة. فإذا انهدم ركن الكبر سهل عليه الإنقياد، وإذا انهدم ركن الحسد سهل عليه قبول النصح وبذله وإذا انهدم ركن الغضب سهل عليه العدل والتواضع، وإذا انهدم ركن الشهوة سهل عليه الصبر والعفاف والعبادة.

وزوال الجبال عن أماكنها أيسر من زوال هذه الأربعة عمن بلي بها، ولا سيما إذا صارت هيئات راسخة، وملكات وصفات ثابتة، فإنه لا يستقيم له معها عمل ألبتة، ولا تزكوا نفسه مع قيامها بها، وكلما اجتهد في العمل أفسدته عليه هذه الأربعة، وكل الآفات متولدة منها، وإذا استحكمت في القلب أرته الباطل في صورة الحق، والحق في صورة الباطل، والمعروف في صورة المنكر، والمنكر في صورة المعروف، وقربت منه الدنيا وبعدت منه الآخرة.

وإذا تأملت كفر الأمم رأيته ناشئًا منها، وعليها يقع العذاب، وتكون خفته وشدته بحسب خفتها وشدتها، فمن فتحها على نفسه، فتح عليه أبواب الشرور كلها عاجلًا وآجلًا، ومن أغلقها عن نفسه، أغلق عنه أبواب الشرور، فإنها تمنع الإنقياد والإخلاص والتوبة والإنابة وقبول الحق ونصيحة المسلمين والتواضع لله ولخلقه.



ومنشأ هذه الأربعة: من جهله بربه وجهله بنفسه، فإنه لو عرف ربه بصفات الكمال ونعوت الجلال، وعرف نفسه بالنقائص والآفات لم يتكبر ولم يغضب لها، ولم يحسد أحدًا على ماآتاه الله، فإن الحسد في الحقيقة نوع من معادات الله، فإنه يكره نعمة الله على عبده، وقد أحبها الله، ويحب زوالها عنه، والله يكره ذلك، فهو مضاد لله في قضائه وقدره ومحبته وكراهته.

ولذلك كان إبليس عدوه حقيقة؛ لأن ذنبه كان عن كبر وحسد، فقلع هاتين الصفتين بمعرفة الله وتوحيده، والرضا به وعنه والإنابة إليه، وقلع الغضب بمعرفة النفس، وأنها لا تستحق أن يغضب لها، وينتقم لها، فإن ذلك إيثار لها بالرضا والغضب على خالقها وفاطرها. وأعظم ما تدفع به هذه الآفة أن يعودها أن تغضب له سبحانه وترضى له، فكلما دخلها شيء من الغضب والرضا له خرج منها مقابله من الغضب والرضا لها، وكذا بالعكس.

وأما الشهوة: فدواؤها صحة العلم والمعرفة بأن إعطاءها شهواتها أعظم أسباب حرمانها إياها ومنعها منها، وحميتها أعظم أسباب اتصالها إليها، فكلما فتحت عليها باب الشهوات كنت ساعيًا في حرمانها إياها، وكلما أغلقت عنها ذلك الباب، كنت ساعيًا في إيصالها إليها على أكمل الوجوه، فالغضب: مثل السبع إذا أفلته صاحبه بدأ يأكله، والشهوة: مثل النار إذا أضرمها صاحبها بدأت بإحراقه، والكبر: بمنزلة منازعة الملك ملكه فإن لم يهلك طردك عنه، والحسد: بمنزلة معاداة من هو أقدر منك.





والذي يغلب شهوته وغضبه يفرق الشيطان من ظله، ومن تغلبه شهوته وغضبه يفرق من خياله[1].

موانع الوصول إلى المطلوب الأعلى

الوصول إلى المطلوب الأعلى موقوف على هجر العوائد وقطع العوائق والعلائق.

فالعوائد: السكون إلى الدعة والراحة وما ألفه الناس واعتادوه من الرسوم والأوضاع التي جعلوها بمنزلة الشرع المتبع، بل هي عندهم أعظم من الشرع فإنهم ينكرون على من خرج عنها وخالفها مالا ينكرون على من خالف صريح الشرع وربما كفروه أو بدعوه وضللوه أو هجروه وعاقبوه لمخالفة تلك الرسوم، وأماتوا لها السنن ونصبوها أندادًا للرسول يوالون عليها ويعادون، فالمعروف عندهم ما وافقها والمنكر ما خالفها.

وهذه الأوضاع والرسوم، قد استولت على طوائف بني آدم من الملوك والولاة والفقهاء والصوفية والفقراء والمتطوعين والعامة، فربى فيها الصغير ونشأ عليها الكبير، واتخذت سننًا، بل هي أعظم عند أصحابها من السنن، الواقف معها محبوس، والمتقيد بها منقطع، عم بها المصاب، وهجر لأجلها السنة والكتاب، من استنصر بها فهو عند الله مخذول، ومن اقتدى بها دون كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فهو عند الله غير مقبول، وهذه أعظم الحجب والموانع بين العبد وبين النفوذ إلى الله ورسوله.

(١) من الفوائد.





وأما العوائق: فهي أنواع المخالفات، ظاهرها وباطنها، فإنها تعوق القلب عن سيره إلى الله وتقطع عليه طريقه، وهي ثلاثة أمور:

شرك، وبدعة، ومعصية. فيزول عائق الشرك بتجريد التوحيد، وعائق البدعة بتحقيق السنة، وعائق المعصية بتصحيح التوبة، وهذه العوائق لا تتبين للعبد حتى يأخذ في أهبة السفر ويتحقق بالسير إلى الله والدار الآخرة، فحينئذ تظهر له هذه العوائق ويحس بتعويقها بحسب قوة سيره وتجرده للسفر، وإلا فما دام قاعدًا لا يظهر له كوامنها وقواطعها.

وأما العلائق: فهي كل ماتعلق به القلب دون الله ورسوله من ملاذ الدنيا وشهواتها ورياساتها وصحبة الناس والتعلق بهم، ولا سبيل له إلى قطع هذه الأمور الثلاثة، ورفضها إلا بقوة التعلق بالمطلب الأعلى وإلا فقطعها عليه بدون تعلقه بمطلوبه ممتنع.

فإن النفس لا تترك مألوفها ومحبوبها إلا لمحبوب هو أحب إليها منه وآثر عندها منه، وكلما قوي تعلقه بمطلوبه ضعف تعلقه بغيره، وكذا بالعكس. والتعلق بالمطلوب: هو شدة الرغبة فيه، وذلك على قدر معرفته به وشرفه وفضله على ما سواه[١].

---

(١) من الفوائد.



من جواهر الحكم والفوائد المنثورة

للعبـد ستر بينه وبين الله، وستر بينه وبين الناس، فمن هتك الستر الذي بينه وبين الله هتك الله الستر الذي بينه وبين الناس.

للعبد رب هو ملاقيه، وبيت هو ساكنه، فينبغي له أن يسترضـي ربه قبل لقائه، ويعمر بيته قبل انتقاله إليه.

إضاعة الوقت أشد من الموت، لأن إضاعة الوقت تقطعك عن الله والدار الآخرة، والموت يقطعك عن الدنيا وأهلها.

الدنيا من أولها إلى آخرها لا تساوي غم ساعة فكيف بغم العمر، محبوب اليوم يعقب المكروه غدًا، ومكروه اليوم يعقب المحبوب غدًا.

أعظم الربح في الدنيا: أن تشغل نفسك كل وقت بما هو أولى بها وأنفع لها في معادها.

كيف يكون عاقلاً من باع الجنة بما فيها بشهوة ساعة.

المخلوق إذا خفته استوحشت منه وهربت منه، والرب تعالى إذا خفته أنست به وقربت إليه. لو نفع العلم بلا عمل لما ذم الله سبحانه أحبار أهل الكتاب، ولو نفع العمل بلا إخلاص لما ذم المنافقين.

إذا جرى على العبد مقدور يكرهه فله فيه ست مشاهد:

أحدها: مشهد التوحيد وأن الله هو الذي قدره وشاءه وخلقه وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.



الثاني: مشهد العدل، وأنه ماض فيه حكمه، عدل فيه قضاؤه.

الثالث: مشهد الرحمة، وإن رحمته في هذا المقدور غالبة لغضبه وانتقامه، ورحمته عفوه.

الرابع: مشهد الحكمة، وإن حكمته سبحانه اقتضت ذلك لم يقدره سدى ولا قضاه عبثًا.

الخامس: مشهد الحمد، وأن له سبحانه الحمد التام على ذلك من جميع وجوهه.

السادس: مشهد العبودية، وأنه عبد محض من كل وجه تجرى عليه أحكام سيده وأقضيته بحكم كونه ملكه وعبده فيصرفه تحت أحكامه القدرية كما يصرفه تحت أحكامه الدينية فهو محل لجريان هذه الأحكام عليه.

الإجتماع بالإخوان قسمان:

أحدهما: اجتماع على مؤانسة الطبع وشغل الوقت، فهذا مضرته أرجح من منفعته، وأقل ما فيه أنه يفسد القلب ويضيع الوقت.

الثاني: الاجتماع بهم على التعاون على أسباب النجاة والتواصي بالحق والصبر، فهذا من أعظم الغنيمة وأنفعها.

ولكن فيه ثلاث آفات:

إحداها: تزين بعضهم لبعض.

الثانية: الكلام والخلطة أكثر من الحاجة.

الثالثة: أن يصير ذلك شهوة وعادة ينقطع بها عن المقصود.

وبالجملة: فالإجتماع والخلطة لقاح، إما للنفس الأمارة، وإما للقلب والنفس المطمئنة والنتيجة مستفادة من اللقاح فمن طاب لقاحه طابت ثمرته وهذي الأرواح الطيبة لقاحها من الملك والخبيثة لقاحها من الشيطان وقد جعل الله سبحانه بحكمته الطيبات للطيبين والطيبين للطيبات وعكس ذلك.

بين العبد وبين الله والجنة قنطرة تقطع بخطوتين: خطوة عن نفسه، وخطوة عن الخلق فيسقط نفسه ويلغيها فيما بينه وبين الناس ويسقط الناس ويلغيهم فيما بينه وبين الله، فلا يلتفت إلا إلى من دله على الله وعلى الطريق الموصلة إليه.

من عرف نفسه اشتغل بإصلاحها عن عيوب الناس.

من عرف ربه اشتغل به عن هوى نفسه.

أنفع العمل أن تغيب فيه عن الناس بالإخلاص وعن نفسك بشهود المنة فلا ترى فيه نفسك ولا ترى الخلق.

دخل الناس النار من ثلاثة أبواب: باب شبهة أورثت شكًا في دين الله، وباب شهوة أورثت تقديم الهوى على طاعته ومرضاته، وباب غضب أورث العدوان على خلقه.

أصول الخطايا كلها ثلاثة: الكبر، وهو الذي أصار إبليس إلى ما أصاره، والحرص، وهو الذي أخرج آدم من الجنة، والحسد، وهو الذي جرأ أحد ابنى آدم على أخيه. فمن وقي شر هذه الثلاثة فقد

وقي الشر، فالكفر من الكبر، والمعاصي من الحرص، والبغي والظلم من الحسد.

جمع النبي ﷺ في قولـه: «فاتقوا الله وأجملوا في الطلب»: بين مصالح الدنيا والآخرة.

فالآخـرة ونعيمها ولذاتها، إنما تنال بتقوى الله. وراحة القلب والبدن وترك الإهتمام والحرص الشديد والتعب والعناء والكد والشقاء في طلب الدنيا إنما ينال بالإجمال في الطلب، فمن اتقى الله فاز بلذة الآخـرة ونعيمهـا، ومن أجمـل في الـطلب استراح من نكد الدنيا وهمومها، فالله المستعان:

قـد نادت الدنيـا على نفسها لو كان في ذا الخلق من يسمع
كـم واثـق بالعيـش أهلكته وجامـع فرقـت ما يجمـــــع

سر التوكل على الله وحقيقته: هو اعتماد القلب على الله وحده، فلا يضر مباشرة الأسباب مع خلو القلب من الإعتماد عليها والركون إليها، كما لا ينفعه قوله توكلت على الله، مع اعتماده على غيره وركونه إليه وثقته به، فتوكل اللسان شيء، وتوكل القلب شيء. كما أن توبة اللسان مع إصرار القلب شيء، وتوبة القلب وإن لم ينطق اللسان شيء. فقول العبد توكلت على الله مع اعتماد قلبه على غيره، مثل قوله: تبت إلى الله وهو مصر على معصيته مرتكب لها.

اتباع الهوى وطول الأمل مادة كل فساد، فإن اتباع الهوى يعمي عن الحق معـرفـة وقصـدًا، وطول الأمل ينسي الآخرة ويصد عن الإستعداد لها.



إذا أراد الله بعبد خيراً جعله معترفًا بذنبه، ممسكًا عن ذنب غيره، جوادًا بما عنده، زاهدًا فيما عند غيره، محتملاً لأذى غيره، وإن أراد به شرًا عكس ذلك عليه.

العقول المقيدة بالتوفيق، ترى أن ماجاء به الرسول ﷺ هو الحق الموافق للعقل والحكمة.

والعقول المضروبة بالخذلان، ترى المعارضة بين العقل والنقل وبين الحكمة والشرع.

أقرب الوسائل إلى الله، ملازمة السنة والوقوف معها في الظاهر والباطن ودوام الإفتقار إلى الله، وإرادة وجهه وحده بالأقوال والأفعال، وما وصل أحد إلى الله إلا من هذه الثلاثة، وما انقطع عنه أحد إلا بانقطاعه عنها أو عن أحدها.

الأصول التي انبنى عليها سعادة العبد ثلاثة، ولكل واحد منها ضد، فمن فقد ذلك الأصل حصل على ضده: التوحيد وضده الشرك، والسنة وضدها البدعة، والطاعة وضدها المعصية، ولهذه الثلاثة ضد واحد وهو خلو القلب من الرغبة في الله وفيما عنده، ومن الرهبة منه وما عنده.

العجب ممن تعرض له حاجة فيصرف رغبته وهمته فيها إلى الله ليقضيها له، ولا يتصدى للسؤال لحياة قلبه من موت الجهل والإعراض، وشفائه من داء الشهوات والشبهات، ولكن إذا مات القلب لم يشعر بمعصيته.





إذا استغنى الناس بالدنيا، فاستغن أنت بالله، وإذا فرحوا بالدنيا، فافرح أنت بالله، وإذا أنسوا بأحبابهم، فاجعل أنسك بالله، وإذا تعرفوا إلى ملوكهم وكبرائهم وتقربوا إليهم لينالوا بهم العزة والرفعة، فتعرف أنت إلى الله وتودد إليه، تنل بذلك غاية العز والرفعة.

قال بعض الزهاد: ما علمت أن أحدًا سمع بالجنة والنار تأتي عليه ساعة لا يطيع الله فيها بذكر أو صلاة أو قراءة أو إحسان. فقال له رجل: إني أكثر البكاء فقال: إنك إن تضحك وأنت مقر بخطيئتك خير من أن تبكي وأنت مدل بعملك، وأن المدل لا يصعد عمله فوق رأسه. فقال: أوصني فقال: دع الدنيا لأهلها كما تركوا هم الآخرة لأهلها، وكن في الدنيا كالنحلة، إن أكلت أكلت طيبًا، وإن أطعمت أطعمت طيبًا، وإن سقطت على شيء لم تكسره ولم تخدشه.

النعم ثلاثة: نعمة حاصلة يعلم بها العبد، ونعمة منتظرة يرجوها، ونعمة هو فيها لا يشعر بها. فإذا أراد الله إتمام نعمته على عبده، عرفه نعمته الحاضرة، وأعطاه من شكره قيدًا يقيدها به حتى لاتشرد فإنها تشرد بالمعصية وتقيد بالشكر، ووفقه لعمل يستجلب به النعمة المنتظرة، وبصره بالطرق التي تسدها وتقطع طريقها، ووفقه لاجتنابها، وإذا بها قد وافت إليه على أتم الوجوه، وعرفه النعم التي هو فيها ولا يشعر بها.





ويحكى أن أعرابيًا دخل على الرشيد فقال: أمير المؤمنين ثبت الله عليك النعم التي أنت فيها بإدامة شكرها، وحقق لك النعم التي ترجوها بحسن الظن به ودوام طاعته، وعرفك النعم التي أنت فيها ولا تعرفها لتشكرها، فأعجبه ذلك منه وقال: ماأحسن تقسيمه.

قال شقيق بن إبراهيم: أغلق باب التوفيق عن الخلق من ستة أشياء: اشتغالهم بالنعمة عن شكرها، ورغبتهم في العلم وتركهم العمل، والمسارعة إلى الذنب وتأخير التوبة، والإغترار بصحبة الصالحين وترك الإقتداء بفعالهم، وإدبار الدنيا عنهم وهم يتبعونها، وإقبال الآخرة عليهم وهم معرضون عنها.

قلت: وأصل ذلك عدم الرغبة والرهبة، وأصله ضعف اليقين، وأصله ضعف البصيرة، وأصله مهانة النفس ودناءتها، واستبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير.

الناس منذ خلقوا لم يزالوا مسافرين، وليس لهم حط عن رحالهم إلا في الجنة أو النار، والعاقل يعلم أن السفر مبني على المشقة وركوب الأخطار، ومن المحال عادة أن يطلب فيه نعيم ولذة وراحة، إنما ذلك بعد انتهاء السفر، ومن المعلوم أن كل وطأة قدم، أو كل آن من آنات السفر غير واقفة، ولا المكلف واقف، وقد ثبت أنه مسافر على الحال التي يجب أن يكون المسافر عليها، من تهيئة الزاد الموصل، وإذا نزل أو نام أو استراح، فعلى قدم الإستعداد للسير.

لله على العبد في كل عضو من أعضائه أمر، وله عليه فيه نهي، وله فيه نعمة، وله به منفعة ولذة، فإن قام لله في ذلك العضو بأمره





واجتنب فيه نهيه. فقد أدى شكر نعمته عليه فيه، وسعى في تكميل انتفاعه ولذته به، وإن عطل أمر الله ونهيه فيه، عطله الله من انتفاعه بذلك العضو، وجعله من أكبر أسباب ألمه ومضرته، وله عليه في كل وقت من أوقاته عبودية تقدمه إليه وتقربه منه، فإن شغل وقته بعبودية الوقت، تقدم إلى ربه، وإن شغله بهوى أو راحة وبطالة تأخر، فالعبد لا يزال في تقدم أو تأخر، ولا وقوف في الطريق ألبته.

قال تعالىٰ: ﴿لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر﴾[1].

تذكر القبر وحال ساكنه

أخرج الإمام أحمد والترمذي والحاكم من حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: «استحيوا من الله حق الحياء» قالوا: إنا نستحي من الله والحمد لله قال: «ليس ذلك، ولكن الإستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما حوى، والبطن وما وعى، وأن تذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء».

وخرج الترمذي والحاكم من حديث أسماء بنت عميس عن النبي ﷺ قال: «بئس العبد عبد تخيل واختال ونسي الكبير المتعال، بئس العبد عبد تجبر واعتدى ونسي الجبار الأعلى، بئس العبد عبد سهى ولهى ونسي المقابر والبلى، بئس العبد عبد عتى وطغى ونسي المبتدى

---

(١) هذه الجواهر والفوائد جمعتها من قواعد وفوائد وفصول متفرقة من كتاب الفوائد لابن قيم الجوزية.





والمنتهى، بئس العبد عبد يختل الدنيا بالدين، بئس العبد عبد يختل الـدين بالشهوات، بئس العبد عبد طمع يقوده، بئس العبد عبد هوى يضله، بئس العبد عبد رغب يذله».

وخـرج الترمذي من حديث ابن عمر قال أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي وقال: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل وعد نفسك من أهل القبور». وخرج البخاري أوله.

وروى ابن أبي الدنيا عن سريع الشامي قال: قال عمر بن عبد العزيز لرجل من جلسائه: يافلان لقد أرقت الليلة مفكرًا قال: فيم يا أمير المؤمنين فقال: في القبر وساكنه، إنك لو رأيت الميت بعد ثالثة في قبره، لاستـوحشت من قبره بعـد طول الأنس منـك بناحيته، ولرأيت بيتًا تجول فيه الهوام، ويجري فيه الصديد، وتخترقه الديدان، مع تغير الرائحة وبلى الأكفان بعد حسن الهيئة وطيب الرائحة ونقاء الثوب قال: ثم شهق شهقة خر مغشيًا عليه. وعن محمد بن كعب القرظي قال بعث إلي عمر بن عبد العزيز فقدمت عليه فأدمت النظر إليه فقال يابن كعب إنك لتنظر إليّ نظرا ماكنت تنظره إلي بالمدينة قال: قلت: أجل ياأمير المؤمنين يعجبني ما حال من لونك ونحل من جسمك قال: فكيف يابن كعب لو أتيتني بعد ثلاثة في القبر وقد نبت حدقتاى على وجهي وخرج الدود والصديد من منخري لكنت إلي أشد نكرة. وعن وهيب بن الورد قال: بلغنا أن رجلاً فقيهًا دخل على عمر بن عبد العزيز فقال: سبحان الله. كأنه تعجب من أمره الذي هو عليه. قال له: تغيرت بعدنا فقال له عمر: وتبينت ذلك؟ فقال



له: الأمر أعظم من ذلك، فقال له يافلان فكيف لو رأيتني بعد ثلاث وقد أدخلت قبري وقد خرجت الحدقتان فسالتا على الخدين وتقلصت الشفتان عن الأسنان وانفتح الفم ونبا البطن فعلا الصدر، وخرج الصديد من الدبر. وعن سعيد بن أبي حمزة قال: كتب عمر بن عبد العزيز إلى بعض مدائن الشام: أما بعد، فكم للتراب في جسد ابن آدم من مأكل، وكم للدود في جوفه من طريق يخترق وإني أحذركم ونفسي أيها الناس العرض على الله عز وجل، وروى أبو نعيم والحاكم بإسناد له: أن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه شيع جنازة من أهله ثم أقبل على الناس فوعظهم وذكرهم الدنيا وذمها، وذكر أهلها وتنعمهم فيها وما صاروا إليه بعدها من ظلمة القبر وكان من كلامه أنه قال: إذا مررت بهم فنادهم إن كنت مناديًا، وادعهم إن كنت داعيًا، ومر بعسكرهم وانظر إلى تقارب منازلهم، سل غنيهم ما بقي من غناه وسل فقيرهم ما بقي من فقره، وسل عن اللسان الذي كانوا به يتكلمون، وعن الأعين التي كانوا بها إلى اللذات ينظرون، وسلهم عن الجلود الرقيقة والوجوه الحسنة، والأجساد الناعمة، ما صنع بها الديدان، محت الألوان، وأكلت اللحمان، وعفت الوجوه، ومحت المحاسن، وكسرت الفقارة وأبانت الأعضاء، وخرقت الأشلاء، أين حجابهم وقيانهم، وأين خدمهم وعبيدهم وجمعهم وكنوزهم والله ما زودوهم فرشًا، ولا وضعوا هناك مسكًا، ولا غرسوا لهم شجرًا ولا أنزلوهم من اللحد قرارًا، أليسوا في الخلوات، أليس الليل والنهار عندهم سواء أليسوا في مدلهمة مظلمة، قد حيل بينهم وبين العمل، وفارقوا الأحبة، وكم من ناعم



وناعمة، أصبحوا ووجوههم بالية، وأجسادهم عن أعناقهم بائنة، وأوصالهم متفرقة، وقد سالت الحدق على الوجنات، وامتلأت الأفواه صديدًا، ودبت دواب الأرض في أجسادهم وتفرقت أعضاؤهم، ثم لم يلبثوا والله إلا يسيراً حتى عادت العظام رميمًا، قد فارقوا الحدائق، وصاروا بعد السعة في المضايق، وقد تزوجت نساؤهم، وترددت في الطرق أبناؤهم، وتوزعت القرابات ديارهم وميراثهم فمنهم والله الموسع له في قبره، الغض الناضر فيه، والمتنعم بلذته، ياساكن القبر غدًا ما الذي غرك من الدنيا هل تعلم أنك تبقى لها أو تبقى لك، أين دارك الفيحاء ونهرك الطرد، وأين ثمرتك اليانعة، وأين رقاق ثيابك، وأين طيبك، وأين بخورك وأين كسوتك لصيفك وشتائك، أما والله قد نزل به الأمر فما يدفع عنه وخلا وهو يرشح عرقًا ويتلمظ عطشًا، يتقلب في سكرات الموت وغمراته، جاء الأمر من السماء، وجاء غالب القدر والقضاء هيهات هيهات يامغمظ الوالد والولد وغاسله، يامكفن الميت وحامله، يامخليه في القبر راجعًا عنه، ليت شعري كيف كنت على خشونة الثرى ليت شعري بأي خديك بدأ البلى، يامجاور الهلكى صرت في محلة الموتى، ليت شعرى ما الذي يلقاني به ملك الموت عند خروجي من الدنيا، وما يأتيني به من رسالة ربي، ثم انصرف فما عاش بعد ذلك إلا جمعة.

وروي عنه من وجوه متعددة أنه قال في آخر خطبة خطبها رحمة الله عليه: ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين، يرثها بعدكم





الباقون، كذلك ترد إلى خير الوارثين في كل يوم تشيعون غاديًا ورائحًا قد قضى نحبه، تودعونه وتدعونه في صدع من الأرض غير ممهد ولا موسد، قد فارق الأحباب وقطع الأسباب، وسكن التراب، وواجه الحساب، غنيًا عما خلف، فقيرًا إلى ماقدم.

ويروى أنه كان في جنازة في مقبرة فرأى قومًا يهربون من الشمس إلى الظل فأنشد شعرًا:

من كان حين تصيب الشمس جبهته
أو الغبار يخاف الشين والشعثا
ويألف الظل كي تبقى بشاشته
فسوف يسكن يومًا راغمًا جدثا
في ظل مقبرة غبراء مظلمة
يطيل تحت الثرى في غمها اللبثا
تجهزي بجهاز تبلغين به
يانفس قبل الردى لم تخلقي عبثاً

وروى ابن أبي الدنيا بإسناد عن الحسن أنه مر به شاب وعليه بردة حسنة فدعاه فقال: ابن آدم معجب بشبابه، معجب بجماله، كأن القبر قد دنا ووارى بدنك، وكأنك قد لاقيت عملك، ويحك داو قلبك.

وعن عبد الله بن العيزار قال: لابن آدم بيتان بيت على ظهر الأرض، وبيت في بطن الأرض، فعمد إلى الذي على الأرض فزخرفه وزينه وجعل فيه أبوابًا للشمال وأبوابًا للجنوب، ووضع ما



يصلحه لشتائه وصيفه، فأتى عليه آت فقال: أرأيت هذا الذي أراك قد أصلحته كم تقيم فيه؟ قال: لا أدري. قال: والذي خربته كم تقيم فيه؟ قال: إلى يوم البعث. قال: تقر بهذا على نفسك وأنت رجل تعقل.

وعن الحسن أنه قال: يومان وليلتان لم تسمع الخلائق مثلهن قط، ليلة تبيت مع أهل القبور ولم تبت قبلها، وليلة صبيحتها يوم القيامة ويوم يأتيك البشير من الله إما بالجنة أو بالنار، ويوم تعطى كتابك بيمينك أو بشمالك.

وشهد الحسن جنازة فاجتمع عليه الناس فقال: اعملوا لمثل هذا اليوم رحمكم الله فإنما هم إخوانكم يقدمونكم وأنتم بالأثر، أيها المخلف بعد أخيه أنت الميت غدًا والباقي بعدك هو الميت في أثرك أولًا فأولًا حتى توفوا جميعًا قد عمكم الموت واستويتم جميعًا في كربه وغصصه، ثم تخليتم جميعًا إلى القبور ثم تنشرون جميعًا ثم تعرضون جميعًا على ربكم عز وجل.

وقال صفوان بن عمر: وذكروا النعيم فسموا ناسًا، فقال رجل: أنعم رجال في التراب، قد أمنوا العذاب، ينتظرون الثواب.

وروي عن إبراهيم بن أدهم أنه قرأ على قبر:

ما أحد أكرم من مفرد   في قبره أعماله تؤنسه
منعم الجسم في روضة   زينها الله فهي مجلسه





تزود قريناً من فعالك إنما
قرين الفتى في القبر ما كان يفعل
وإن كنت مشغولاً بشيء فلا تكن
بغير الذي يرضى إلهك تشغل
فلن يصحب الإنسان من بعد موته
إلى قبره إلا الذي كان يعمل
ألا إنما الإنسان ضيف لأهله
مقيم قليلاً عندهم ثم يرحل[1]

أصناف أهل الجنة وأصناف أهل النار

في صحيح مسلم عن عياض بن حمار رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال في خطبته: وأهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط متصدق، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم، وعفيف متعفف ذو عيال. وأهل النار خمسة: الضعيف الذي لازبر له الذين هم فيكم تبع لا يبغون أهلاً ولا مالاً، والخائن الذي لا يخفى له طمع وإن دق إلا خانه، ورجل لا يصبح ولا يمسى إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك: وذكر البخل، والكذب، والشنظير الفاحش.

ففي هذا الحديث جعل النبي ﷺ أهل الجنة ثلاثة أصناف:

أحدها: ذو السلطان المقسط المتصدق، وهو من كان له سلطان على الناس فسار في سلطانه بالعدل ثم ارتقى درجة الفضل.

---

(١) من أهوال القبور باختصار.



والثاني: الرحيم الرقيق القلب الذي لا يخص برحمته قرابته بل يرحم المسلمين عمومًا، فتبين أن القسمين أهل الفضل والاحسان.

والثالث: العفيف المتعفف ذو العيال، وهو من يحتاج إلى ماعند الناس فيتعفف عنهم، وهذا أحد نوعي الجود، أعني العفة عما في أيدي الناس لا سيما مع الحاجة.

وقد وصف الله في كتابه أهل الجنة ببذل الندى وكف الأذى ولو كان الأذى بحق فقال: ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين۝ الذي ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين﴾. فهذا حال معاملتهم للخلق.

ثم وصف قيامهم بحق الحق فقال: ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون۝ أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين﴾.

فوصفهم الله عند الذنوب بالاستغفار وعدم الإصرار، وهو حقيقة التوبة النصوح.

وقريب من هذه الآية قوله تعالى: ﴿فلا اقتحم العقبة۝ وما أدراك ما العقبة۝ فك رقبة ۝ أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيمًا ذا مقربة أو مسكينًا ذا متربة۝ ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة۝ أولئك أصحاب الميمنة﴾.





والعقبة قد فسرها ابن عباس: بالنار، وفسرها ابن عمر: بعقبة في النار.

فأخبر سبحانه أن اقتحامها وهو قطعها ومجاوزتها يحصل بالإحسان إلى الخلق، إما بعتق رقبة وإما بالإطعام في المجاعة، والمطعم إما يتيم من ذوي القربى أو مسكين قد لصق بالتراب فلم يبق له شيء، ولابد مع هذا الإحسان أن يكون من أهل الإيمان والأمر لغيره بالعدل والإحسان، وهو التواصي بالصبر والتواصي بالمرحمة، وأخبر سبحانه أن هذه الأوصاف أوصاف أصحاب الميمنة.

وأما أهل النار: فقد قسمهم النبي ﷺ في هذا الحديث خمسة أصناف:

الصنف الأول: الضعيف الذي لا زبر له، ويعنى بالزبر: القوة والحرص على ما ينتفع به صاحبه في الآخرة من التقوى والعمل الصالح. وخرج العقيلي من حديث أبي هريرة مرفوعًا: «إن الله يبغض المؤمن الذي لازبر له» قال بعض رواة الحديث: يعني الشدة في الحق. ولما حدث مطرف بن عبد الله بحديث عياض بن حمار هذا وبلغ قوله الضعيف الذي لازبر له. فقيل له أو يكون هذا؟ قال: نعم والله لقد أدركتهم في الجاهلية وإن الرجل ليرعى على الحي ما له إلا وليدتهم يطؤها. وقال ابن شوذب: يقال إن عامة أهل النار كل ضعيف لا زبر له الذين هم فيكم اليوم تبع لا يبغون أهلاً ولا مالاً. خرجه عبد الله بن الإمام أحمد في الزهد.





وهذا القسم شر أقسام الناس ونفوسهم ساقطة لأنهم ليس لهم همم في طلب الدنيا ولا الآخرة ، وإنما همة أحدهم شهوة بطنه وفرجه كيف اتفق له، وهو تبع للناس خادم لهم أو طواف عليهم سائل لهم.

والصنف الثاني: الخائن الذي لا يخفى له طمع وإن دق إلا خانه، أي لا يقدر على خيانة ولو كانت حقيرة يسيرة إلا بادر إليها واغتنمها.

ويدخل في ذلك التطفيف في المكيال والميزان.

وكذلك الخيانة في الأمانات القليلة كالودائع وأموال اليتامى وغير ذلك وهو خصلة من خصال النفاق، وربما يدخل الخيانة من خان الله ورسوله في ارتكاب المحارم سرًا مع إظهار اجتنابها.

وقال بعض السلف: كنا نتحدث أن صاحب النار من لاتمنعه خشية الله من شيء خفي له.

الصنف الثالث: المخادع الذي دأبه صباحاً ومساء مخادعة الناس على أهليهم وأموالهم، والخداع من أصناف المنافقين كما وصفهم الله تعالى بذلك، والخداع معناه: إظهار الخير وإضمار الشر لقصد التوصل إلى أموال الناس وأهاليهم والانتفاع بذلك، وهو من جملة المكر والحيل المحرمة.

وفي حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ: «من غشنا فليس منا» والمكر والخداع في النار.





والصنف الرابع: الكذب والبخل، ولم يحفظ الراوي ماقال النبي ﷺ في هذا حفظًا جيدًا، والكذب والبخل خصلتان، وفي مسند الإمام أحمد في هذا الحديث الكذب أو البخل بالشك، وقد قيل إنه عدهما واحدًا، كذا قاله مطر الوراق وهو أحد رواة هذا الحديث.

والكذب والبخل كلاهما ينشأ عن الشح كما جاء ذلك في الأحاديث، والشح: هو شدة حرص الإنسان على ماليس له من الوجوه المحرمة، وينشأ عنه البخل وهو إمساك الإنسان ما في يده والامتناع من إخراجه في وجوهه التي أمر بها، فالمخادع الذي سبق ذكره هو الشحيح، وهذا الصنف هو البخيل، فالشحيح أخذ المال بغير حقه، والبخيل منعه من حقه، كذلك روى تفسير الشح والبخل عن ابن مسعود وطاووس وغيرهما من السلف، وفي الأثر: أن الشيطان قال: مهما غلبني ابن آدم فلن يغلبني بثلاث: يأخذ المال من غير حله، أو ينفقه في غير وجهه، أو يمنعه من حقه، وينشأ عن الشح أيضًا: الكذب والمخادعة والتحيل على مالا يستحقه الإنسان بالطرق الباطلة المحرمة.

وفي الصحيح عن النبي ﷺ قال: «إن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار».

وفي المسند عن عبد الله بن عمرو قال: سئل النبي ﷺ ما عمل أهل النار؟ قال: «الكذب، إذا كذب العبد فجر وإذا فجر كفر وإذا كفر دخل النار».

الصنف الخامس الشنظير: وقد فسر بالسيء الخلق، والفحاش: هو الفاحش المتفحش.





وفي الصحيحين عن عائشة عن النبي ﷺ قال: «**إن من شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة من تركه الناس إتقاء فحشه**».

وفي الترمذي عن ابن مسعود عن النبي ﷺ: «إن الله يبغض الفاحش البذي» والبذي: الذي يجري لسانه بالسفه ونحوه من لغو الكلام.

وفي المسند عن النبي ﷺ قال: «بحسب امرىء من الشر أن يكون فاحشًا بذياً بخيلاً جبانًا» فالفاحش: هو الذي يفحش في منطقه ويستقبل الرجال بقبيح الكلام من السب ونحوه، ويأتي في كلامه بالسخف وما يفحش ذكره.

وخرج الإمام أحمد من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «عرض علي أول ثلاثة يدخلون الجنة، وأول ثلاثة يدخلون النار، فأما أول ثلاثة يدخلون الجنة: فالشهيد، وعبد مملوك لا يشغله رق الدنيا عن طاعة ربه، وفقير متعفف ذو عيال. وأول ثلاثة يدخلون النار: فأمير متسلط، وذو ثروة من مال يمنع حق الله في ماله، وفقير فخور» وخرج الترمذي أوله وقال: حديث حسن.

فهؤلاء الأصناف الثلاثة من أهل النار. وضد الأصناف الثلاثة من أهل الجنة المذكورين في حديث عياض ابن حمار، فإن السلطان المسلط ضد العادل المحسن، والغني الذي يمنع حق الله ضد الرحيم الرقيق القلب لذي القربى وكل مسلم، والفقير الفخور ضد





المتعفف الصابر على شدة الفقر وضره، وأوصاف هؤلاء الثلاثة هي الظلم والبخل والكبر، والثلاثة ترجع إلى الظلم؛ لأن الملك يظلم الناس بيده، والبخيل يظلم الفقراء بمنع حقوقهم الواجبة، والفقير الفخور يظلم الناس بفخره عليهم بقوله وأذاه لهم بلسانه.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في حديث طويل ذكر فيه المقاتل والقارىء والمتصدق الذين يراؤون بأعمالهم وقال: «أولئك أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة يا أبا هريرة».

وقد يجمع بين هذا الحديث والذي قبله بأن هؤلاء الثلاثة أول من تسعر بهم النار، وأولئك الثلاثة أول من يدخل النار، وتسعير النار أخص من دخولها فإن تسعيرها يتقتضي تلهبها وإيقادها، وهذا قدر زائد على مجرد الدخول، وإنما زاد عذاب أهل الرياء على سائر العصاة؛ لأن الرياء هو الشرك الأصغر، والذنوب المتعلقة بالشرك أعظم من المتعلقة بغيره.

وقد ورد أن فسقة القراء يبدأ بهم قبل المشركين.

فروى عبد الملك بن ابراهيم الجدي حدثنا عبد الله بن عبد العزيز العمري عن أبي طوالة عن أنس عن النبي ﷺ قال: «الزبانية أسرع إلى فسقه القراء منهم إلى عبدة الأوثان فيقولون يبدأ بنا قبل عبدة الأوثان، فيقال لهم ليس من علم كمن لا يعلم» خرجه الطبراني وأبو نعيم وقال: غريب من حديث أبي طوالة تفرد به عنه العمري انتهى، والعمري هذا: هو أبو عبد الرحمن الزاهد رحمه الله.





وقد ذكرنا أحاديث متعددة في خروج عنق من النار يوم القيامة يتكلم، وأنها تلتقط من صفوف الخلق المشركين والمتكبرين وأصحاب التصاوير، وفي رواية: ومن قتل نفسًا بغير نفس فينطلق بهم قبل سائر الناس بخمسمائة عام.

وروي عن ابن عباس وغيره من السلف أن ذلك يكون قبل نشر الدواوين ونصب الموازين.

وجاء في حديث مرفوع أن ذلك يكون قبل حساب سائر الناس والله أعلم[1].

---

(١) من التخويف من النار باختصار.





الحزن العظيم على المتخلفين عن رفقة السابقين إلى جنات النعيم

بالله ما عذر امرىء هو مؤمن حقًا بهـذا ليس باليقظان
بل قلبه في رقدة فإذا استفا ق فلبسه هو حلة الكسلان
تالله لو شاقتك جنات النعيـ ـم طلبتها بنفائس الأثمان
وسعيت جهدك في وصال نواعم وكواعب بيض الوجوه حسان
جليت عليك عرائس والله لو تجلى على صخر من الصوان
رقت حواشيه وعاد لوقته ينهال مثل نقى من الكثبان
لكن قلبك في القساوة جاز حد الصخر والحصباء في اسحان
لو هزك الشوق المقيم وكنت ذا حس لما استبدلت بالأدوان
أو صادفت منك الصفات حياة قلـ
ـب كنت ذا طلب لهذا الشان

****

ياسلعة الرحمن لست رخيصة بل أنت غالية على الكسلان
يا سلعة الرحمن ليس ينالها في الألف إلا واحد لا اثنان
يا سلعة الرحمن ماذا كفؤها إلا أولو التقوى مع الإيمان
يا سلعة الرحمن سوقك كاسد بين الأراذل سفلة الحيوان
يا سلعة الرحمن أين المشتري فلقد عرضت بأيسر الأثمان
يا سلعة الرحمن هل من خاطب فالمهر قبل الموت ذو إمكان



يا سلعة الرحمن كيف تصبر الخـ ـطاب عنك وهم ذوو إيمان
يا سلعة الرحمن لولا أنها حجبت بكل مكاره الإنسان
ما كان عنها قط من متخلف وتعطلت دار الجزاء الثاني
لكنها حجبت بكل كريهة ليصد عنها المبطل المتواني
وتنالها الهمم التي تسمو إلى رب العلى بمشيئة الرحمن
فاتعب ليوم معادك الأدنى تجد راحاته يوم المعاد الثاني
وإذا أبت ذا الشأن نفسك فا تهمها ثم راجع مطلع الإيمان
فإذا رأيت الليل بعد وصبحه ما انشق عنه عموده لأذان
والناس قد صلوا صلاة الصبح وانـ ـتظروا طلوع الشمس قرب زمان
فاعلم بأن العين قد عميت فنا شد ربك المعروف بالاحسان
واسأله إيمانًا يباشر قلبك المحـ ـجوب عنه لتنظر العينان
واسأله نورًا هاديًا يهديك في طرق المسير إليه كل أوان
والله ما خوفي الذنوب فإنها لعلى طريق العفو والغفران
لكنما أخشى انسلاخ القلب من تحكيم هذا الوحي والقرآن
ورضا بآراء الرجال وخرصها لا كان ذاك بمنة الرحمن
فبأي وجه ألتقي ربي إذا أعرضت عن ذا الوحي طول زمان
وعزلته عما أريد لأجله عزلًا حقيقيًا بلا كتمان
صرحت أن يقيننا لا يستفا د به وليس لديه من إتقان
أوليته هجرًا وتأويلا وتحـ ـريفًا وتفويضًا بلا برهان
وسعيت جهدي في عقوبة ممسك بعراه لا تقليد رأى فلان
يا معرضًا عما يراد به وقد جد المسير فمنتهاه دان



جذلان يضحك آمنا متبخترا فكأنه قد نال عقد أمان
خلع السرور عليه أوفى حلة طردت جميع الهم والأحزان
يختال في حلل المسرة ناسيًا ما بعدها من حلة الأكفان
ما سعيه إلا لطيب العيش في الدنيا ولو أفضى إلى النيران
قد باع طيب العيش في دار النعـ يم بذا الحطام المضمحل الفان
إني أظنك لا تصدق كونه بالقرب بل ظن بلا إيقان
بل قد سمعت الناس قالوا جنة أيضًا ونار بل لهم قولان
والوقف مذهبك الذي تختاره وإذا انتهى الإيمان للرجحان
أم تؤثر الأدنى عليه وقالت النـ ـفس التي استعلت على الشيطان
أتبيع نقدًا حاصلًا بنسيئة بعد الممات وطي ذي الأكوان
لو أنه بنسيئة الدنيا لها ن الأمر لكن في معاد ثان
دع ما سمعت الناس قالوه وخذ ما قد رأيت مشاهدًا بعيان
والله لو جالست نفسك خاليًا وبحثتها بحثًا بلا روغان
لرأيت هذا كامنًا فيها ولو أمنت لألقته إلى الآذان
هذا هو السر الذي من أجله اختارت عليه العاجل المتدان
نقد قد اشتدت إليه حاجة منها ولم يحصل لها بهوان
أتبيعه بنسيئة في غير هـ ـذي الدار بعد قيامة الأبدان
هذا وإن جزمت بها قطعًا ولـ ـكن حظها في حيز الإمكان
ما ذاك قطعيًا لها والحاصل المـ ـوجود مشهود برأى عيان
فتألفت من بين شهوتها وشبـ ـهتها قياسات من البطلان
واستنجدت منها رضا بالعاجل الـ أدنى على الموعود بعد زمان
وأتى من التأويل كل ملائم لمرادها يارقة الإيمان

وصغت إلى شبهات أهل الشرك والـ ـتعطيل مع نقص من العرفان
واستنقصت أهل الهدى ورأتهم في الناس كالغرباء في البلدان
ورأت عقول الناس دائرة على جمع الحطام وخدمة السلطان
وعلى المليحة والمليح وعشرة الأ حباب والأصحاب والإخوان
فاستوعرت ترك الجميع ولم تجد عوضًا تلذ به من الإحسان
والقلب ليس يقر إلا في أنا ء فهو دون الجسم ذو جولان
يبغي له سكنًا يلذ بقربه فتراه شبه الواله الحيران
فيحب هذا ثم يهوى غيره فيظل منتقلًا مدى الأزمان
لو نال كل مليحة ورياسة لم يطمئن وكان ذا دوران
بل لو ينال بأسرها الدنيا لم قرت بها قد ناله العينان
نقل فؤادك حيث شئت من الهوى واختر لنفسك أحسن الإنسان
فالقلب مضطر إلى محبوبه الأ على فلا يغنيه حب ثان
وصلاحه وفلاحه ونعيمه تجريد هذا الحب للرحمن
فإذا تخلى منه أصبح حائرًا ويعود في ذا الكون ذا هيمان

فصل في زهد أهل العلم والإيمان، وإيثارهم الذهب الباقي على الخزف الفاني

لكن ذا الإيمان يعلم أن هـ ـذي كالظلال وكل هذا فان
كخيال طيف ما استتم زيارة إلا وصبح رحيله بأذان
وسحابة طلعت بيوم صائف فالظل منسوخ بقرب زمان
وكزهرة وافى الربيع بحسنها أو لامعًا فكلاهما أخوان

أو كالسراب يلوح للظمآن في وسط الهجير بمستوى القيعان
أو كالأماني طاب منها ذكرها بالقول واستحضارها بجنان
وهي الغرور رؤس أموال المفا ليس الأولى اتجروا بلا أثمان
أو كالطعام يلذ عند مساغه لكن عقباه كما تجدان
هذا هو المثل الذي ضرب الرسو ل لها وذا في غاية التبيان
وإذا أردت ترى حقيقتها فخذ منه مثالاً واحدًا ذا شان
أدخل بجهدك أصبعا في اليم وانـ ـظر ما تعلقه إذًا بعيان
هذا هو الدنيا كذا قال الرسو ل ممثلاً والحق ذو تبيان
وكذاك مثلها بظل الدوح في وقت الحرور لقائل الركبان
هذا ولو عدلت جناح بعوضة عند الإله الحق في الميزان
لم يسـق منها كافرًا من شربة ماء وكان أحق بالحرمان
تالله ماعقل امرؤ باع ما يبقى بما هو مضمحل فان
هذا ويفتي ثم يقضـي حاكمًا بالحجر من سفه لذا الإنسان
إذ باع شيئًا قدره فوق الذي يعتاضه من هذه الأثمـان
فمن السفيه حقيقة إن كنت ذا عقل وأين العقل للسكران[١]
والله لو أن القلوب شهدن مـ ـنا كان شأن غير هذا الشان
نفس من الأنفاس هذا العيش إن قسناه بالعيش الطويل الثاني
ياخسة الشركاء مع عدم الوفا ء وطول جفوتها مع الهجران

---

(١) معنى كلامه أن السفيه يحكم بالحجر عليه إذا باع شيئًا بأقل من قيمته فأولى بالسفه من باع الآخرة التي هذا قدرها بالدنيا وهي لا تساوي عند الله جناح بعوضه أ. هـ من الشرح.



هل فيك معتبر فيسلو عاشق ... بمصارع العشاق كل زمان
لكن على تلك العيون غشاوة ... وعلى القلوب أكنة النسيان
وأخو البصائر حاضر متيقظ ... متفرد عن زمرة العميان
يسمو إلى ذاك الرفيق الأرفع الأ ... على وخلى اللعب للصبيان
والناس كلهم فصبيان وإن ... بلغو سوى الأفراد والوحدان
وإذا رأى ما يشتهيه قال مو ... عدك الجنان وجد في الأثمان
وإذا أبت إلا الجماح أعاضها ... بالعلم بعد حقائق الإيمان
ويرى من الخسران بيع الدائم الـ ... ـباقي به ياذلة الخسران
ويرى مصارع أهلها من حوله ... وقلوبهم كمراجل النيران
حسراتها هن الوقود فإن خبت ... زادت سعيرا بالوقود الثاني
جاؤا فرادى مثل ما خلقوا بلا ... مال ولا أهل ولا إخوان
ما معهم شيء سوى الأعمال فهـ ... ـي متاجر للنار أو لجنان
تسعى بهم أعمالهم سوقًا إلى ... الدارين سوق الخيل بالركبان
صبروا قليلًا فاستراحوا دائمًا ... يا عزة التوفيق للإنسان
حمدوا التقى عند المهات كذا السرى ... عند الصباح فحبذا الحمدان
وخدت بهم عزماتهم نحو العلى ... وسروا فما نزلوا إلى نعمان
باعوا الذي يفنى من الخزف الخسـ ... ـيس بدائم من خالص العقيان
رفعت لهم في السير أعلام السعا ... دة والهدى ياذلة الحيران
فتسابق الأقوام وابتدروا لها ... كتسابق الفرسان يوم رهان
وأخو الهوينا في الديار مخلف ... مع شكله ياخيبة الكسلان[1]

---

(١) من الكافية الشافية.



خاتمـــة

العجب كل العجب من أربعة:

أحدها: من عاقل غير عالم، أما يهتم بمعرفة مابين يديه، أما يتعرف ما هو مطلع بعد الموت عليه بالنظر في هذه الدلائل والعبر، والاستماع إلى هذه الآيات والنذر، والإنزعاج بهذه الخواطر والهواجس في النفس قال الله تعالى: ﴿**أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء**﴾، وقال تعالى: ﴿**ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون. ليوم عظيم**﴾.

والثاني: من عالم غير عامل بالعلم، أما يتفكر، أما يعلم يقينًا مما بين يديه من الأهوال العظام والعقبات الصعاب، وهذا هو النبأ العظيم الذي أنتم عنه معرضون.

والثالث: من عامل غير مخلص، أما يتأمل قوله تعالى: ﴿**فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحًا ولا يشرك بعبادة ربه أحدًا**﴾.

والرابع: من مخلص غير خائف، أما ينظر إلى معاملاته جل جلاله مع أصفيائه وأوليائه وخدمه الدالة بينه وبين خلقه حتى يقول لأكرم الخلق عليه: ﴿**ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين. بل الله فاعبد وكن من الشاكرين**﴾، وهذه ونحوها حتي حكى أنه كان عليه السلام يقول: «شيبتني هود وأخواتها».





ثم جملة الأمر وتفصيله، ما قاله رب العالمين في أربع آيات من الكتاب العزيز قوله عز وجل: **﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثًا وأنكم إلينا لا ترجعون﴾**.

ثم قال جل اسمه: **﴿ولتنظر نفس ماقدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾**.

ثم قال جل من قائل: **﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾**.

ثم أجمل الكل فقال وهو أصدق القائلين: **﴿ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغني عن العالمين﴾**.

ونحن نستغفر الله تعالى من كل مازل به القدم أو طغى به القلم، ونستغفره من كل أقاويلنا التي لا توافق أعمالنا، ونستغفره من كل ما ادعيناه وأظهرناه من العلم بدين الله تعالى مع التقصير فيه، ونستغفره من كل خطرة دعتنا إلى تصنع وتزين في كتاب سطرناه، أو كلام نظمناه أو علم أفدناه، ونسأله أن يجعلنا وإياكم يا معشر الإخوان بما علمناه عاملين، ولوجهه مريدين، وأن لا يجعله وبالاً علينا، وأن يضعه في ميزان الصالحات إذا ردت أعمالنا إلينا إنه جواد كريم[1].

وبهذه الخاتمة والدعوات ختمنا هذا المجموع في يوم السبت الثامن والعشرين من شهر جمادى الأولى من سنة سبع وثمانين وثلاثمائة وألف

(١) من منهاج العابدين.



من الهجرة النبوية، في بلد ليلى من الأفلاج وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه ومن تبعهم إلى يوم الدين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، ٢٨/٥/١٣٨٧هـ.

فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة
خطبة الكتاب	٥
مقدمة الطبعة الثانية	٦
فضل التذكير بالله تعالىٰ ومجالس الذكر	٧
انقسام الناس بعد انتهاء مجلس الذكر	٩
شرف العلم والعبادة	١١
عنوان سعادة العبد	١٢
عنوان إرادة الله بعبده الخير	١٦
الجناحان اللذان يسير بهما العارف إلى الله تعالى	١٦
مدار العبودية وأصلها وبيان منشأ هذا الأصل	١٧
السبب الذي يستقيم به بناء السلوك إلى الله على هذا الأصل	١٨
بيان ما تفاضل به الأعمال عند الله تعالى	٢١
علامات تعظيم المناهي	٢١
نزغات الشيطان عند الأوامر	٢٣
ما ينجي من الشيطان ويحصل به الفوز في الدنيا والآخرة	٢٥
ما يتعلق بالتوحيد، مثل الموحد والمشرك	٢٧
دواوين الظلم عند الله يوم القيامة	٢٨
مفتاح الجنة وأسنانه	٢٨



الموضوع	الصفحة
طبقات الناس ثلاث ودورهم يوم القيامة ثلاث	٢٩
ما يتعلق بالصلاة، وأقسام الإلتفات المنهي عنه في الصلاة	٣٠
غيرة الشيطان من العبد إذا قام في صلاته	٣١
الفرق العظيم بن حاضر القلب في صلاته والغافل المفرط	٣١
ما يتجلى من المعاني الجليلة لعامر القلب بالإيمان في الصلاة	٣٣
الصلاة المقبولة والعمل المقبول	٣٩
مراتب الناس في الصلاة	٤٠
السبب في حضور القلب في الصلاة	٤٢
أنواع القلوب	٤٢
ما يتعلق بالصيـــام	٤٣
تمثيل صاحب الصيام بصاحب صرة المسك والسر في ذلك	٤٣
الصـــوم المشـــروع	٤٣
الاختلاف في وجود هذه الرائحة وفصل النزاع في ذلك ...	٤٤
آثار الحسنة والسـيئة	٤٤
ما يتعلـــق بالصـــدقة	٤٦
تمثيل المتصدق بمن افتدى نفسه بماله من يدعدوه	٤٦
الفرق بن الشح والبخل	٤٨





الموضوع	الصفحة
مدح السخاء وحده وأنواعه	٤٩
محبة الله لمن اتصف بمقتضيات صفاته	
وأمثلة من ذلك	٥٠
من عامل خلق الله بصفة عامله الله بها	
في الدنيا والآخرة	٥١
ما يتعلق بذكر الله تعالى	٥٢
تمثيل تحرز العبد بذكر الله بمن أحرز نفسه	
من عدوه في حصن حصين	٥٢
معنى الوسواس الخناس	٥٢
أحاديث في فضل الذكر وذم الغافل عنه	٥٣
فصل الخطاب في التفضيل بين الذاكر والمجاهد	٥٥
الاكثار من ذكر الله ، والتحسر على	
مافات من الوقت بدون ذكر	٥٦
جلاء القلوب من الصدأ، وبيان ما يصدأ به القلب	٥٦
أعظم عقوبات القلب	٥٧
غراس الجنة	٥٨
ما رتب على الذكر من الفضل والعطاء الجزيل	٥٨
الأمان من نسيان الله تعالى	٦٠
معنى قوله تعالى ﴿ومن أعرض عن ذكري﴾	
وبيان مايترتب على ذلك.	٦١
جزاء المحسن بإحسانه في الدنيا والآخرة	٦٢





الموضوع	الصفحة
نعيم المقبلين على الله تعالى في الدنيا والآخرة	٦٣
معاملة ميت القلب	٦٥
أكرم الخلق على الله تعالى	٦٦
أقسام عمال الآخرة	٦٦
ذكر الله في كل حال	٦٨
أصل موالاة الله عز وجل	٦٩
سبب صلاة الله على عبده، وفضيلة ذلك	٦٩
مجالس الملائكة في الدنيا	٧٠
مباهات الله بالذاكرين الملائكة	٧١
المقصود بالأعمال الشرعية، معنى اللام في قوله أقم الصلاة لذكري	٧٢
الصحيح في معنى قوله تعالى: ﴿ولذكر الله أكبر﴾	٧٣
أفضل أهل كل عمل صالح	٧٤
إدامة الذكر تنوب عن كثير من الطاعات	٧٥
آثار ذكر الله في اليسر والأمن والقوة	٧٦
من فضائل (لا حول ولا قوة إلا بالله)	٧٧
الأمان من النفاق	٧٨
السبب في الإنقاذ من الشيطان	٧٩
حديث عظيم القدر لكل مسلم حفظه	٧٩
أذكار مهمة تحرز العبد من الشيطان	٨٢



الموضوع	الصفحة
العصمة من كل شيطان ظالم ومن كل سبع ضار ومن كل لص	٨٤
أنواع الذكر	٨٨
الذكر والدعاء وأيهما أفضل	٩١
بدء الداعي بحمد الله والثناء عليه	٩١
دعاء الكرب	٩٢
اسم الله الأعظم، وأفضل الدعاء	٩٢
التفاضل بين القراءة والذكر والدعاء	٩٣
مجالس الذكر	٩٥
عظم حق الله وتقصير العباد في ذلك	٩٦
كثرة استغفار النبي ﷺ	٩٩
حاجة العباد إلى مغفرة الله كحاجتهم إلى رحمته	٩٩
عجز العباد عن القيام بشكر نعم الله على الكمال	١٠٠
معنى الرضى بالله ربا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ رسولا	١٠١
مما يوضح عدل الله تعالى	١٠٢
ما في العقوبة العامة من الحكمة	١٠٢
ما يستقيم به السير إلى الله والدار الآخرة	١٠٣
أثر الشهادة عند الموت	١٠٣
ما تتم به الرغبة في الآخرة والزهد في الدنيا	١٠٤
نبذ الرسول ﷺ وأصحابه للدنيا	١٠٦
أساس كل خير ومفتاحه	١٠٨



الموضوع	الصفحة
أعظم عقوبة وأسبابها	١١٠
أسباب قسوة القلب	١١٠
المواطن التي يجول فيها القلب	١١١
أفضل ما اكتسبته النفوس وحصلته القلوب	١١١
ظاهر الإيمان وباطنه	١١٣
نصيحة قيمة	١١٣
علامات السعادة، وعلامات الشقاوة	١١٤
أركان الكفر	١١٦
منشأ هذه الأركان	١١٧
قلع هذه الأركان ودواؤها	١١٧
موانع الوصول إلى المطلوب الأعلى	١١٨
من جواهر الحكم والفوائد	١٢٠
المشاهد عند وقوع المكروه	١٢١
أقسام الإجتماع بالإخوان	١٢١
ما تقطع به القنطرة التي بين العبد وبين الله والجنة	١٢٢
الأبواب التي دخل الناس النار منها	١٢٢
أصول الخطايا	١٢٣
ما تنال به مصالح الدنيا والآخرة وراحة القلب والبدن	١٢٣
سر التوكل وحقيقته	١٢٣
مادة كل فساد، وأقرب الوسائل إلى الله تعالى	١٢٤
الأصول التي انبنى عليها سعادة العبد وضدها	١٢٤



الموضوع	الصفحة
أنواع النعم	١٢٥
الأبواب التي أغلق باب التوفيق منها	١٢٦
سفر الناس كلهم ومنتهى هذا السفر	١٢٦
عبودية الأعضاء كلها	١٢٧
تذكر القبر وحال ساكنه	١٢٧
أصناف أهل الجنة وأصناف أهل النار	١٣٣
الحزن العظيم على المتخلفين عن رفقة السابقين إلى جنات النعيم	١٤١
الحكمة في حجب الجنة بالمكاره	١٤٢
الخوف العظيم من عدم تحكيم الوحيين	١٤٢
السبب في الغفلة في الدنيا وعدم الجد في عمل الآخرة	١٤٣
زهد أهل العلم والإيمان في الدنيا ورغبتهم في الآخرة	١٤٤
أمثلة واضحة للدنيا	١٤٥
الخاتمة في العجب من أربعة	١٤٧


شبكة
الألوكة
www.alukah.net


الجديد
و
حصري
NEW & EXCLUSIVE





مطابع الفرزدق التجارية - الرياض
تلفون: ٤٨٢٤٨٦٥ - ٤٨٢٤٩٨٣

